جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة
UNIVERSITE DJILALI BOUNAAMA KHEMIS MILIANA

مجلة الونشريس للدراسات التاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التاريخ بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة – الجزائر

المجلد: 01، العدد: 01، ديسمبر 2021

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة –الجزائر

مجلة الونشريس للدراسات التّاريخية

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية تصدر عن قسم التاريخ بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة.

إدارة المجلة

السنة الأولى، المجلد الأول، العدد 01، جمادى الأولى 1443هـ/ ديسمبر 2021م

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية تاريخية دولية محكمة سداسية، مجانية الوصول. تصدر عن قسم التاريخ بجامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة ولاية عين الدفلى (الجزائر)، وهي نصف سنوية. تنشر بحوث ومقالات علمية أصيلة ورقيا وإلكترونيا متاحة للقراءة والتحميل. والمجلة مفتوحة للباحثين من داخل الوطن وخارجه لنشر إنتاجهم العلمي، الذي تصف بالأصالة والجدة.

مجالات النشر بالمجلة:

المجلة متخصصة في الدراسات والأبحاث التاريخية بمختلف الميادين والتخصصات (قديم، وسيط، حديث، معاصر)، ومعالجة جميع إشكاليات حقل البحث التاريخي والحقول المرتبطة به، مثل علم الآثار وعلم المتاحف وعلم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وتاريخ فلسفة العلم، وتاريخ التعليم. كما أن المجلة أحيانا تخصص أعداد خاصة لنشر موضوعات متخصصة أو أعمال ملتقيات.

أهداف المجلة:

تهدف المجلة إلى نشر البحوث والدراسات التاريخية المتخصصة، وإلى مواكبة جهود البحث التاريخي في الجامعات الجزائرية والدولية، وتوفر منصة أكاديمية للباحثين لنشر المعارف التاريخية بقصد المساهمة في العمل المبتكر في هذا المجال ببحوث معروضة بدقة وموضوعية تلتزم بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالميا، كما تهدف لتطوير البحث الأكاديمي العلمي في الجزائر.

شروط النشر:

1. لا تقبل إلا البحوث التي لم يسبق نشرها، كما يجب ألا يقدم البحث المرسل للمجلة للنظر في نشره إلى دورية أخرى قبل أن يخطر الباحث من قبل رئيس تحرير المجلة بالاعتذار عن نشره.
2. يجب اعتماد طلب النشر في المجلة من قبل جميع المشاركين في البحث وموافقة الجهات المسؤولة في حالة وجود ضرورة إلى ذلك.
3. في حالة قبول البحث أو أثناء إعداده للنشر في المجلة، يجب عدم نشره في أي جهة أخرى بنفس الصيغة واللغة أو أي لغة أخرى.
4. عند تقديم الباحثين مسوداتهم للنشر في المجلة، فإن حقوق الطبع والنشر تنتقل كاملة إلى الناشر بعد إخطارهم بقبوله للنشر.
5. تغطي حقوق الطبع إنتاج وتوزيع البحث وكذلك إعادة الطبع والاستنساخ والمصورات المصغرة وقواعد المعلومات الإلكترونية وشرائط الفيديو أو أي إعادة إنتاج بطبيعة مشابهة وكذلك الترجمة.
6. في حالة البحث المشترك، يعتمد الباحث الأول المدون مع عنوان البحث مرجعاً للبحث.
7. بعد قبول البحث وفي مرحلة إعداده النهائي للنشر، يتم إرسال وثيقة انتقال حقوق الطبع والنشر إلى الباحث للتوقيع عليها (الوثيقة متوفرة وهي قابلة للتحميل على موقع المجلة).
8. يفترض أن المعلومات والآراء والأحكام الواردة في هذه المجلة صحيحة ودقيقة في وقت طباعتها، ولا يتحمل الناشر أو المحرر أية مسؤولية قانونية عن أي نقص أو أخطاء ترد في البحوث.
9. المفاهيم والآراء المعبر عنها في المقالات لا تلزم إلا أصحابها.

أخلاقيات النشر في المجلة والتحكيم

تعتمد المجلة أخلاقيات النشر لضمان نوعية جيدة للبحوث المنشورة، وهي تلزم أطرافها من هيئة مشرفة وناشرين ومحكمين الالتزام بمبادئ ميثاق أخلاقيات النشر، وتحرص على ضمان حقوق الباحثين والمؤلفين، وسرية التحكيم، وجودة التحكيم من خلال انتقاء أجود المحكمين المتخصصين، وهي تلزم الناشرين باحترام قواعد النشر وإجراء التصحيحات المطلوبة من المراجعين. وهذه التقارير أساس القبول، أو التأجيل، أو الرفض، لأي بحث أو دراسة مع العلم أن المجلة يمكنها أن تطلب إدخال التعديلات التي تراها مناسبة بناء على تقارير المحكمين.

الكلمة الافتتاحية لمدير المجلة:

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على اشرف المرسلين، و بعد، سيداتي سادتي الزميلات و الزملاء الأساتذة، بناتي أبنائي الطلبات و الطلبة، إنه لمن دواعي سرورنا أن نتقدم إليكم بهذا المولود العلمي الجديد، والذي نأمل أن يكون لبنة جديدة تضاف إلى اللبنات التي سبقتنا في بناء سرح الجامعة الجزائرية، و حلقة من حلقات الجهد المبذول في طريق البحث العلمي الجاد للباحث الجامعي، وأننا إذ نقدم لكم مجلة الونشريس للدراسات التاريخية إنما نقدم لكم مجلة دورية محكمة نصف سنوية تصدر عن قسم التاريخ لجامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة.

إن غايتنا الأولى وهدفنا الأسمى من هذه المجلة هو توفير المجال الحر للإبداع العلمي و مجال خصب و منتج للأفكار الجديدة و المعرفة، فكما قال الشيخ محي الدين بن العربي " الطريق إلى الحقيقة يتعدد بتعدد السالكين" فنسأ الله العلي القدير أن يجعل من هذا الفضاء أحد الطرق المؤدية إلى الحقيقة العلمية الخالصة، و أن ينبر طريقنا إلى سلك الطريق القويم في مجال البحث العلمي.

فهرس المجلد 01، العدد 01

العدد التسلسلي 01

الرّحلة العّلميّة للفقيه مخلوف البّلبالي وآثارها الحضارية على بلاد الهوسا بشمال نيجيريا (من القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م)

The scientific expedition of Faqih Makhluf Al-Balbali and its civilizational effects on the Hausa country in northern Nigeria.(From 10H/16C to 13H/19C)

محمد فتحة*
جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)
m.fatha@univ-dbkm.dz

يدر بن عبد الله
جامعة يحيى فارس المدية (الجزائر)
benab200@outlook.fr

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/10/15	2021/11/14	2021/../..

الملخص: يتناول هذا المقال، بالدّراسة والتّحليل، أحد أعلام الصّحراء الجزائريّة من خلال الإجابة عن الإشكاليات الآتية: من هو الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي؟ وإلى أي مدى ساهمت رحلته العلميّة مطلع القرن (10هـ/16م) في إثراء بعض الجوانب الحضاريّة في بلاد الهوسا بشمال نيجيريا؟ وفيما تتجّلى انعكاسات تلك الرّحلة على علماء الدّولة الصُّكتية؟

شملت رحلة البلبالي حاضرة "تيبلبالة" التي شيد فيها "قصر مخلوف" وجلب إليها الكثير من الكتب، أمّا "تمبكتو" بمالي فقد قصدها لطلب العلم لأنّها كانت أندلس زمانها، وتأثيره الأبرز كان في مدينتي "كانو" و"كاتسينا" الواقعتان في بلاد الهوسا بشمال نيجيريا، أين كان لهذا الفقيه إسهامات حضارية رصدت على مدار ثلاثة قرون، تمثلت في نشر الإسلام وتعزيز انتشار المذهب المالكيّ، وتدريس اللّغة العربيّة، ومزاولة القضاء، أما الفتوى المشهورة له حول تجارة رقيق بلاد السّودان، أصبحت مرجعا يعتمد عليه علماء تلك المنطقة في بيان حكم المسألة، ومن جملة من تأثروا بها علماء الدّولة الصُّكتية، التّي تأسست في مطلع القرن (13هـ/19م) وعلى رأسهم الشّيخ عثمان بن فودي.لنصل للهدف العام للبحث، والمتمثل في تأكيد التّواصل والتّأثير الحضاري لعلماء المغرب الأوسط في منطقة السّاحل الإفريقي.

الكلمات المفتاحية: مخلوف البلبالي؛ التّأثير الحضاريّ؛ بلاد الهوسا؛ عثمان بن فودي؛ تيبلبالة.

* المؤلف المرسل

Abstract

This article tackles, through study and analysis, one of the scholars of the Algerian Sahara by answering the following problems: Who is the Faqih Makhluf Ben Salah Al - Balbali? To what extent did his scientific journey in the beginning of the (10H/16C) century enrich some aspects of civilization in the Hausa country in Northern Nigeria? And what are the implications of that journey for the scientists of the Sokoto State?

Al Balbali's trip included Tabelbala, in which he constructed a "Makhlouf Palace" and he brought many books to it. However, he went to Timbuktu in Mali to seek knowledge because it was Andalusia in its time. And its prominent influence was in the cities of " Kano and Katsina " located in the Hausa country in Northern Nigeria, where the Fakih has had civilizational contributions that were monitored over the three centuries, represented in spreading Islam and promoting the spread of Maliki school of thought, teaching the Arabic language and the practice of the judiciary. As for his well - known advisory opinion on the slave trade in Sudan, it has become a reference for the scholars of that region to rely on in clarifying the ruling of the issue. Among those who were influenced by it, the scholars of the Sokoto State, which was founded at the beginning of the century (13H/19C), headed by Sheikh Uthman Bin Foduye. Then, we will reach the overall objective of the research, which is to confirm the communication and civilizational influence of Central Maghreb scholars in the African Coast.

Key Words: Makhluf Al-Balbali ; Civilizational impact; The Country of Hausa; Uthman Bin Foduye; Tabelbala.

مقدمة:

الباحث في التّاريخ الحضاري لبلاد السّودان الغربي، يجد أنّه كان قبلة للعلماء والفقهاء والدّعاة والواعظين، وإليه تشد الرّحال ذهابا وإيابا من مختلف بقاع العالم الإسلاميّ، وبحكم القرب الجغرافيّ لهذا الإقليم من المغرب الإسلاميّ عموما، والمغرب الأوسط بصحرائه خصوصا، فقد انفرد من هذا الأخير ثلة من العلماء والفقهاء بالرّحلة العلميّة التّي تميزت بالاستقرار في العديد من حواضر الصحراء الكبرى والسودان الغربي، مثل **تمبكتو**[1] و مدن بلاد الهوسا على غرار **كانو**[2] و**كاتسينا**[3]، واهتم هؤلاء العلماء والفقهاء بقضايا السّودان الغربيّ المتعلقة بنشر تعاليم الدّين

الإسلاميّ، ومحاربة البِدع والفساد، ونصح الحكام والأمراء، ومزاولة مهنة التّدريس والتّعليم، وجلب الكتب، وممارسة مهنة القضاء.

من بين علماء المغرب الأوسط، من الذّين كان لهم أثر وإسهامات في الجانب الحضاريّ بواسطة الرّحلة العلميّة في الصّحراء الكبرى وبلاد السّودان الغربيّ، نجد أن أشهرهم هو الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني (ت.909هـ/1504م)، أمّا الحافظ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي (المتوفى في حدود 950هـ/1543م) فهو واحد منهم، حيث حذا حذو المغيلي، وارتحل إلى العديد من حواضر الصّحراء الكبرى والسّودان الغربي، وينسب إلى مدينة **تيبلبالة** إحدى حواضر صحراء المغرب الأوسط (مدينة بشار الجزائرية حاليا)، غير أنّ المصادر التّاريخية المتاحة الآن للباحثين لم تنصف الرّجل، ولم أقف إلّا على بعض الإشارات هنا وهناك حول الجهود التي قام بها خاصّة في بلاد السّودان الغربيّ.

تسعى هذه الدّراسة إلى إبراز بعض الآثار الحضارية لرحلة الحافظ مخلوف بن على بن صالح البلبالي؛ وانعكاساتها على مختلف الأقاليم التي زارها في حواضر الصّحراء الكبرى ومدن السّودان الغربيّ، حيث ساهم في نشر الإسلام، وترسيخ المذهب المالكيّ، ومزاولة مهن التّدريس والإمامة والقضاء، والفتوى المشهورة له حول حكم تجارة الرق في بلاد السّودان، أصبحت مرجعية علمية استعان بها بعض العلماء من بعده لتوضيح حكم نازلة تجارة الرق، وفي مقدمتهم الشيخ عثمان بن فودي مؤسس الدّولة الصُّكتية.[4] فالبحث في هذه النّقاط يعدّ حلقة مهمة من حلقات التّاريخ الوطنيّ، خاصّة فيما يتعلّق بالقضايا التّي تبرز مكانة المغرب الأوسط كمساهم في صناعة التّاريخ الإسلاميّ من الجانب الحضاريّ بواسطة علمائه، وتأكيد صلته الثّقافية مع الأقاليم المجاورة.

وقوفا عند أهمية هذا الموضوع الذّي لم ينل قدرا كافيا من الدّراسات، وقصد معالجته بطرح التّساؤلات الآتية: **من هو الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي؟ وإلى أي مدى ساهمت رحلته**

العلميّة في إثراء بعض الجوانب الحضاريّة في بلاد الهوسا بشمال نيجيريا؟ وفيما تتجلّى انعكاسات تلك الرّحلة على علماء الدّولة الصُّكتية بصفة خاصّة؟

جاء هذا البحث في محورين: أولهما لمحة موجزة عن الفقيه مخلوف البلبالي، والثّاني يرصد مسار رحلة البلبالي في حواضر الصّحراء الكبرى، وآثارها الحضارية على بلاد الهوسا، وكلّ محور يعالج مجموعة من النّقاط التّي تصبّ في خانة الإجابة عن إشكالات الموضوع، الذّي لا يزال مجالا خصبا للبحث والتّنقيب في أمهات الكتب خاصّة المخطوطة منها، وقد اعتمدنا على بعض المصادر والمراجع المتعلّقة بالموضوع ، ومن جملة هذه المصادر كتابي «نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج» و «معراج الصّعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق» لأحمد بابا التّنبكتي (ت. 1036هـ/1627م)، ومخطوطات لعلماء الدّولة الصُّكتية مثل الشّيخ عثمان بن فودي وشقيقه عبد الله، وأبرز مرجع خدم هذه الدراسة كتاب «نبذة مختصرة من تاريخ تبلبالة» للباحث عبد الله حمادي الإدريسي.

أولا: لمحة موجزة عن الفقيه مخلوف البلبالي وحياته العلميّة:

1. التّعريف بحاضرة تيبلبالة:

تبلبالة أو **تبلبت** هي إحدى حواضر الصّحراء الكبرى في ضفتها الشّمالية الغربيّة، ولها ينسب الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي، حاليا دائرة تتبع إداريا لولاية بشار بالجنوب الغربي الجزائري، كما أنها عبارة عن واحة بطول 5 كلم عام (1908م)، تقع على علو 525 متر على مستوى سطح البحر، وعلى سفح جبل تدموست البالغ ارتفاعه 736متر،(5) عرفت هذه المنطقة بتواجد عدة قصور تاريخية بعضها اندثر مثل قصر مخادةقاخدّايو، قصر إديرازن، قصر ماينسكافن، قصر أنكاف، قصر القليعة، قصر البليدة، قصبة كرون، قصر سراحنة، قصر تنادة، قصر تيتارسنت، قصر تبكانت، أما القصور القائمة لحد الآن نجد القصر الكبير أو زاوية سيدي زكري أو قصر المرابطين، وقصر مخلوف، وقصر الشرايعية.(6)

حسب الدّراسة التّي أعدّها عبد الله حمادي الإدريسي في كتابه «نبذة مختصرة من تاريخ تبلبالة» فإن تسمية «تبلبالة» تطوّرت وتغيّرت عدّة مرات عبر الزّمن، حيث خلص إلى أن تبلبالة كانت تسمى قديما «**تبلبارت**» ثمّ صارت تسمى «**تبلبال**» ثمّ صارت تسمى «**تبلبارت**» ثمّ صارت تسمى «**تبلبارت**» ثمّ صارت تسمى «**تبلبلت**» أو «**تبلبالت**» ثمّ صارت تسمى «**تبلبالة**» وهي تسميتها حاليا،(7) والمصادر التّي ارتكز عليها في هذه الدراسة أغلبها من كتب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الصحراء الكبرى وكتبوا عنها.(8)

ورد ذكر اسم **تبلبالة** باسم **تَبَلْبَلْتْ** عند الرّحالة الجغرافيّ المعروف بليون الإفريقي الحسن بن محمد الوزان (ت.961هـ/1554م) في كتابه «وصف افريقيا» حيث قال عنها: "تَبَلْبَلْتْ: هو مكان مأهول في وسط صحراء نوميديا، على بعد نحوي مائتي ميل من الأطلس، ومائة ميل جنوب سجلماسة، وهناك ثلاثة قصور عامرة بالسّكان، وأراضيها الصّالحة للفلاحة مغروسة بالنّخيل، الماء فيها قليل وكذلك اللّحم، وتؤكل فيها النّعام والوعول التيّ تصاد، ورغم أن القوم يتجرون مع بلاد السّودان فإنّهم فقراء لكونهم خاضعين للأعراب".(9)

نجد أنّ الرّحالة العلامة المغربي الشّهير بالسّراج والملقّب بابن مليح في رحلته الحجيّة من عام 1040هـ/1630م، إلى غاية (1042هـ/1633م)، والتيّ صنّف لها كتاب وأطلق عليها اسم أنس السّاري والسّارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب صلى الله عليه وسلم، هذه الرّحلة انطلق منها من مدينة مراكش ومر بمدينة تيبلبالة، وصف هذه الأخيرة بقوله: "ثمّ لبلاد تابلبالت وهما مدشران كثيرا الرّعي والخصب، والماء الزّلال العذب ذات عيون جارية وحدائق مثمرة زاهية من رملة دقيقة صافية تديرها الرياح من نواحيها وتجمعها لمناحيها...".(10)

أمّا لسانهم فقد قال عنه ابن السّراج: "أهلها بربر اللّسان يفتقد في مخاطبهم إلى ترجمان"،11 ويطلق اسم اللّغة الكرونجية(12) على لهجة تبلبالة التّي اهتم العديد من الباحثين بها،

فوجدوها خليط من العربيّة والبربريّة ذات غنة سودانية مثل لغة أهل تمبكتو بمالي الحالية من بلاد السّودان الغربي.[13]

2. اسمه وتاريخ مولده ووفاته:

هو الفقيه والقاضي والرّحالة مخلوف بن علي بن صالح الانصاري المولود بتبلبالة قبل سنة: (900هـ/1495)، وقد عرف باسم مخلوف البلبالي ويكنى بعبيد الله[14]، ولم يرد في المصادر المعتبرة التيّ ترجمت لحياته تاريخ ميلاده أو تاريخ وفاته على وجه التّحديد، أمّا عن وفاته فقد ورد أن الشّيخ كان كثير التّرحال بين مدن المغرب الإسلاميّ والصّحراء الكبرى وبلاد السّودان الغربيّ، وفي إحدى رحلاته العلميّة إلى مراكش تعرض فيها إلى السّم – ولم تشر هذه المصادر هل كان بقصد أم غير قصد – وبعدها رجع إلى بلاده تبلبالة وتوفى بها بعد سنة 940هجري.[15] أمّا العلاّمة المغربي عبد الكبير المجذوب الفاسي(ت.1295هـ/1878م)، فقد ذكر في كتابه «تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السّنين» في حديثه عن وفيات عام (950هـ/1543م) قائلا: "وتوفى مخلوف البلبالي في حدودها أيضا"[16].

3. طلبه للعلم:

أشارت المصادر التّاريخية التّي وقفت عليها أنّ الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي بدأ رحلة طلب العلم والاشتغال به على كبر في السّن وقد مارس التّجارة كذلك، وأوّل شيوخه عبد الله بن عمر بن محمد أقيت[17] من ولاتة[18] حيث قرأ عليه الرّسالة[19]، ولما رأى منه نجابة حضّه على العلم فرغب فيه،[20]كما تعدّدت المعاهد العلميّة التّي ارتحل إليها وحضر مجالس شيوخها وتعلّم منهم، فقد رحل إلى المغرب الإسلاميّ ونزل بفاس وهناك التقى بالشيخ ابن غازي[21] وغيره وأخذ عنهم ما تيسر من العلم،[22] ومن بين هذه المعاهد نجد أيضا الأزهر الشّريف، حيث أشار الباحث محمد عبد العظيم الخولي في كتابه «الأزهر الشّريف والسّودانيون في العصر المملوكيّ»، إلى أن مخلوف البلبالي جاء إلى مصر ودرس في الأزهر الشريف،[23] وحتّى

معاهد تمبكتو التّي كانت تعيش حياة علميّة متقدّمة في تلك الفترة، فقد ارتحل إليها الشّيخ ليتعلم، ويحتك بذلك الخليط الهائل من العلماء من مختلف البلاد الإسلاميّة مثل علماء الأندلس والسّودان والمغرب ومصر وغيرهم،[24] وقال عنه أحمد بابا التنبكتي في كتابه «نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج» يصف علمه ويمدح قوة حفظه قائلا: "وانتشر علمه واشتهر بقوة الحافظة حتّى ذكر عنه فيه العجب حتّى قيل إنّه يحفظ صحيح البخاري".[25]

4. علاقته بعلماء عصره وموقفهم منه:

كل عالم مجتهد يلقى قبولا أو ردا لبعض اجتهاداته الفقهية، وهذا الأمر غير جديد عن مجتهدي الفقه المالكي، ومن العلماء الذّين خالفوا البلبالي في بعض فتاويه واجتهاداته، نجد مثلا الفقيه المالكي **محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليسيتني الفاسي**[26]، حيث قام بتأليف كتاب في مجال فقه الطّهارة للردّ على نظيره مخلوف البلبالي، بعدما أنكر هذا الأخير طهارة بول المريض عندما يكون بوله بأوصاف الماء دون تغيّر فيه في كتاب، ومُصنف محمد اليستني الفاسي جاء بعنوان «**الرّدّ على مخلوف البلبالي في إنكاره القول بطهارة بول المريض الذّي باله بأوصاف الماء بلا تغيّر**»، غير أنّ المؤلفان المذكوران لم نجد لهما أي أثر بين الكتب المحققة أو بين المخطوطات المفهرسة، خاصّة مؤلف البلبالي الذّي لم يذكر في أي مصدر سوى إشارة بسيطة حول موضوعه وليس عنوانه جاءت من قبل أحمد بابا التّبكتي في كتابه نيل الابتهاج أثناء ترجمته لعبد الرّحمن اليسيتني الفاسي، حيث قال: "والرد على مخلوف البلبالي في إنكاره القول بطهارة بول المريض الذي باله بأوصاف الماء بلا تغير، وكان مخلوف ألف فيه تأليفًا رد به على من نقل طهارته سلك فيه طريقة المعقول فناقصه".[27]

وقعت للفقيه مخلوف البلبالي منازعة في مسائل مع العاقب بن عبد الله الانصمني[28] أحد فقهاء المالكية من بلاد السّودان الغربيّ، غير أن نوع المسائل وموضوعها لم ترد في المصادر التّي ترجمت للفقيهين، بل وردت إشارة عن هذه المسائل التّي تنازع فيها الفقيهان بشكل

مقتضب في كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا التّبكتي حيث قال: "أخذ عن الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وعن الإمام السّيوطي لما حج وغيرهما، ووقع له منازعة مع الحافظ مخلوف البلبالي في مسائل".[29]

ثانيا: مسار رحلة البلبالي في حواضر الصّحراء الكبرى، وآثارها الحضاريّة على بلاد الهوسا:

1. حاضرة تبلبالة:

الفقيه مخلوف البلبالي عرف بترحاله الدّائم بين حواضر المغرب الإسلاميّ والصّحراء الكبرى وبلاد السّودان، وبما أن حاضرة تيبلبالة التّي ينسب إليها لم يتركها دون أن يخلف فيها أثرا مازال شاهدا على نشاطه الكبير، ويتمثّل هذا الأثر في تأسيسه لقصر مخلوف[30]، والقصور في الصّحراء عادة ما تتميّز بوجد زوايا لطلب العلم، وتكون في واقعها محطات تجارية في طرق القوافل التي تجوب الصّحراء الكبرى، ويسكنها أناس أصولهم متعدّدة، وقد نقل حمادي الإدريسي رواية شفوية عن المؤرخة الفرنسية دومينيك شومبو مفادها أن الشّيخ أبو زكري أعطاه موضعا بنى فيه قصره الذّي عرف باسمه فيما بعد "قصر مخلوف" فسكن معه بعض النّاس إلا أن الماء بهذا القصر مالح وليس عذبا كماء زكري.[31]

عرف الفقيه مخلوف البلبالي في تبلبالة بأنّه كان رجلا عالما محبّا للعلم وأهله وكتب العلم حتّى قيل أنّه جلب معه من بلاد أروان السّودانية في إحدى رحلاته إليها أربعين حمل بعير من الكتب والتّي كان يعتبرها أغلى من الذّهب، ولكن كما يحكى أتلفها بعد وفاته أحد الفقهاء بالبلاد اسمه أحمد الخضر مخافة أن تقع بين أيدي الجهلة فيستفيدون منها فينافسونه في علمه ووجاهته.[32]

يضيف المؤرخ حمادي الإديسي أن الفقيه مخلوف البلبالي وبنوه من بعده كانوا محل عناية واحترام من أعيان ورجال السّياسة والسّلاطين بالبلاد المجاورة، ودليله على ذلك وجود ظهائر

سلطانية من بينها ظهير مؤرخ بتاريخ رجب عام 943هـ/1537م وفيه: "إلى ابن الفقيه شاعر الشّعراء سيدي مخلوف المخلوفي"، وفي ظهير سلطاني آخر مؤرخ بتاريخ عام 988هـ/1583م وفيه: "إلى ابن الفقيه مخلوفي".(33)

2. رحلته إلى مدينة تمبكتو:

رحلة البلبالي إلى مدينة تمبكتو لم تكن بهدف التّدريس أو القضاء أو نشر الإسلام، وإنّما كانت بهدف طلب العلم والتّفقه على يد بعض مشايخها، لأنّ تلك المدينة أصبحت قطبا حضاريّا بها العديد من المعاهد العلميّة التيّ لا تقل شأنا عن باقي معاهد بلاد المغرب الإسلاميّ، وأصبحت تمبكتو محجا للعلماء وطلبة العلم، وهذا يرجع إلى الاهتمام الكبير من سلاطين مملكة مالي، ومن بينهم منسى موسى الذي حرص على تشجيع البعثات العلمية إلى حواضر العلم في شمال افريقيا، فعلى سبيل المثال أرسل العالم كاتب موسى -الإمام والمدرس- بجامع تمبكتو إلى فاس، ليتلقى مزيدا من العلوم الإسلامية.(34)

كانت رحلة البلبالي إلى تمبكتو بمثابة تحول جوهري في شخصيته العلمية، فيها اختلط بالسودانيين عن قرب واحتك بهم، بل أصبحت تمبكتو قاعدة وصلها لطلب العلم على مشايخها ثم انطلق منها إلى مدن السودان المجاورة لها بصفته عالما، يذكر الدّكتور حماه الله ولد السالم في هامش كتاب تاريخ السّودان للسّعدي الذّي قام بتحقيقه القول التّالي: "وذكرت المصادر أنّ أهم بعثة تعليمية جاءت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو، هي البعثة الونغارية، وكان أفرادها من ركائز معاهد تمبكتو، وأخذ العلماء التّمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو، أمثال الفقيه مخلوف البلبالي و التازخني، ومنهم من أسس معاهد تعليميّة في هذا الإقليم، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا".(35)

3. الآثار الحضارية لرحلة الفيقه البلبالي على بلاد الهوسا بشمال نيجيريا:

إسهامات الفقيه مخلوف البلبالي في بلاد الهوسا غزيرة مقارنة مع باقي المدن التّي ارتحل وحل بها في الصّحراء الكبرى وبلاد السّودان الغربيّ، ولعلّ أهمّ اسهاماته كانت في مدينتي **كاتسينا** و**كانو**، وتركّزت آثاره الحضاريّة في جهوده في نشر الإسلام، وتعزيز تواجد المذهب المالكيّ في تلك المنطقة، وكذلك مزاولة مهنة التّدريس لمختلف العلوم الدّينية وخاصّة تعليم اللّغة العربيّة، كما أن اجتهاداته الفقهية لقيت صدى واسع خاصّة فتواه المشهورة حول نازلة مجلوبي السّودان.

1.3. إسهامات الشّيخ في نشر المذهب المالكيّ:

عوامل انتشار المذهب المالكيّ في بلاد الهوسا عديدة، ولعل من أبرزها دور العلماء والتّجار والدّعاة والدّول الإسلاميّة التّي قامت في بلاد السّودان، ونشاط مخلوف البلبالي في تعزيز المذهب المالكي يندرج ضمن دور العلماء والدّعاة فهو واحد منهم، ويرى الباحث صالح أكنوي أن من بين الفقهاء والأعلام الذين رحلوا إلى نيجيريا الحافظ مخلوف البلبالي، الذّي كان في كانو وكاشنة وغيرهما من المدن النّيجيرية، ويرى بأنّه أفاد أهل نيجيريا كثيرا ،وبأنّه واحد من فطاحل العلماء الذّين دخلوا بلاد الهوسا، وساهموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في نشر المذهب المالكيّ وتوطيد أركانه فيها.(36)

2.3. تدريس اللغة العربية:

الحديث عن عصور اللّغة العربيّة ومراحل تطوّرها في دولة نيجيريا حاليا وبلاد الهوسا سابقا، نجد أن عصر المغيلي من أهمّ هذه العصور، فخلاله انتقلت اللّغة العربيّة من مجرد كلمات يتقنها البعض إلى لغة للعلم والتّعليم، وتشير العديد من المراجع إلى أنّ من بين العوامل التّي ساعدت على انتشار التّعليم العربيّ الإسلاميّ في بلاد الهوسا خلال القرن الرّابع والخامس عشر ميلادي، هي زيارة الوفود والأفراد لبعض ممالك الهوسا والتّي بدأ أثرها يظهر منذ ذلك القرن، فعلماء ذلك العصر يتنقلون من بلد إلى آخر، طلبا للعلم والتماسا للرّزق والحياة، فإذا سمعوا بمركز علميّ أو تجاريّ قصدوه واتّصلوا بعلمائه وملوكه ، وإن طابت لهم الإقامة أقاموا

والتف حولهم طلبة العلم وأخذوا منهم واستفادوا، وربّما ارتحل معهم الطّلبة لنهل من علمهم أكثر، وبما أن كانو وكاتسينا مركزين للعلم والتّجارة فقد كثر الزّوار فيها وفودا وأفرادا.[37]

أشار أحمد بابا التنبكتي(ت. 1036هـ/1627م) في كتابه «**نيل الابتهاج بتطريز الدّباج**» أنّ الفقيه مخلوف البلبالي زاول مهنة التّدريس في كانو و كاتسينا لما حلّ بهما حيث قال: "ثمّ دخل بلاد السّودان كبلد كنو وكشنا وغيرهما **وأقرأ** أهلها"[38]، والواضح أن الإقراء هنا يقصد به التّدريس، وفي الغالب سيكون تدريس العلوم الدّينية، ومن أجل أن يرسّخ هذا الدّين أكثر بين السّودانيين لابدّ من تعليمهم العربيّة حتّى يسهّل عليهم فهم الدّين وتدريسه بأنفسهم، ويشير إلى هذا الأمر كذلك الباحث محمد عبد العظيم الخولي بأن مخلوف البلبالي كان له دور كبير في تعليم اللّغة العربيّة في كانو.[39]

3.3. فتوى مخلوف البلبالي حول رقيق السّودان:

وجد الفقيه مخلوف البلبالي المجتمع السّوداني يعيش حالة من الفوضى على السّاحة الدّينية، على غرار فقه النّوازل، فحكم تجارة الرّق من بين تلك النّوازل التّي تركت جدلا كبيرا بين الفقهاء ، وحتّى بين عوام السّودانيين أنفسهم، نظرا لارتباطها بهم بشكل مباشر، فهم مصدر هذه التّجارة وسلعتها، وبما أنّه فقيه مجتهد فقد تصدر المشهد خلال القرن (10هـ/16م)؛ بفتوى مشهورة له عن حكم مجلوبي السّودان، وردت الإشارة لهذه الفتوى في كتاب «**معراج الصّعود إلى نيل حكم مجلب السّود**»، أو «**الكشف والبيان لأصناف مجلوب السّودان**»[40]، وهذا المصنّف لأحمد بابا التنبكتي(ت. 1036هـ/1627م)، وموضوعه حول نوازل الاسترقاق الخاصّة بأهل السّودان الغربّي، التيّ كانت موردا للعبيد إلى الضّفة الشّمالية للصّحراء الكبرى وغيرها من البلاد، ومن المصادر التّي اعتمد عليها التّنبكتي في تصنيف هذا الكتاب نجد الفتوى المشهورة لمخلوف البلبالي.

أما عن ظروف إصــــدار هذه الفتوى، فيرجح أنّها كانت لما زار مدن شمال نيجيريا، فدولة كاشِـنَة المسـلمة من بين المناطق التّي ارتحل إليها مخلوف البلبالي، حيث تأسّـسـت هذه الدّولة في النّصف الثّاني من القرن الخامس عشر ميلادي، وأصبحت في عهد سلطانها الثّالث المدعو بالمرابط (1498–1524م) محجة للعلماء والمصـلحين من كافّة الأقطار الإسـلاميّة، أمثال محمد بن عبد الكريم المغيلي التّلمسـاني وغيره،[41] ثمّ انتقل مخلوف البلبالي إلى كانو التيّ دخلها الإسـلام قبل ذلك عن طريق التّجار الونغريين،[42] ليشـهد تأسيس أوّل دولة إسـلامية فيها أواخر القرن الخامس عشـر هجري، ويرجح أنّه من المسـاهمين في ظهور هذه الدّولة وأنّه مارس القضاء و التّدريس فيها، وقد أصبحت عاصمتها مدينة كانو مركزا علميّا يتسابق العلماء المسلمون للتّدريس به والتّصدر للأحكام فيه.[43]

❖ **نصّ الفتوى:**

"الجواب في مسـألة الرّقيق: أمّا الرّقيق فأصـله الكفر، وكفار السّـودان كهؤلاء النّصارى إلاّ أنّ السّودان مجوس. أمّا من كان منهم مسلما، كأهل كنو وبعض زكزك وأهل كشنة وأهل كوبر وجميع سغي، كلّهم مسلمون، فلا يجوز تمليكهم. وكذلك فلان كلهم، إلاّ أنّهم يتنازعون ويغير بعضـهم على بعض ويبيع بعضـهم بعضـا ويحلل بعضـهم بعضـا بالغارة والظّلم والتّعدي كالعرب الذّين يعتدون على أحرار المسـلمين فيبيعونهم ظلما، فلا يحلّ تمليك شيئ منهم. ومن عرف منهم أنّه من تلك البلاد المعروفة بالإسلام ،كما ذكرنا وذكر أنّه من تلك البلاد فيترك سـبيله ويحكم له بالحرية حسـبما أفتى به فقهاء الأندلس، كابن عتاب وغيره، ولم يخالفهم في ذلك إلا ابن لبابة، وبنحو هذا قضـى حكام أهل فاس، وبمثل هذا قضـى سيدي محمود قاضـي تنبكت، وهو يقبل قولهم من غير أن يكلف إثبات كونهم من تلك البلاد. ومن يتحرى السّلامة لنفسه فلا يشتري منهم إلّا من يسمي بلاده وينظر هل هو من تلك البلاد أم لا، يعني من بلاد الإسـلام أو بلاد الكفار، وهي مصيبة عظيمة

عمّت بها البلوى في هذا الزّمان في البلدان. والله تعالى أعلم. وبهذا أجاب عبيد الله مخلوف بن صالح سمح الله له.".[44]

يمكن اعتبار هذه الفتوى نصّا مؤسّسا في الفقه المالكيّ ومصدرا أساسيّا من مصادر تاريخ بلاد السّودان في الفترة الفاصلة بين العصور الوسطى والحديثة، وفيها إشارات إلى أن بعض البلاد السودانية مثل كانو وكاتسينا وزكزك وجوبير وغيرها، كانوا على ملة الإسلام في النّصف الأوّل من القرن العاشر هجري.

4.3. تأثير رحلة البلبالي على علماء الدولة الصُّكتية:

ظهرت الدولة الصُّكتية في منطقة الهوسا بشمال نيجيريا عام (1218هـ/1804م)، نتيجة للحركة الإصلاحية والتّجديدية التي قام بها الشيخ عثمان بن فودي، وهذا الأخير يعتبر واحدا من أبرز رجال الدّين والفكر والسّياسة في منطقة أفريقيا الغربية، حيث خلف هذا الرجل مصنفات غزيرة في شتى أصناف العلوم الإسلامية، فقد نشر الباحث « **W. E. N. Kensdale**» من جامعة إبادن النيجيرية عام (1954م) عدة مقالات عن المخطوطات العربية التي تم اكتشافها بمنطقة شمال نيجيريا، وقدم قائمة تضم خمسة وثمانين (85) مخطوطا لعثمان بن فودي،[45] وقدم الباحث «**Isma'il A.B. Balogun**» عام 1973م، قائمة تضم (115) مؤلفا من مؤلفات الشّيخ عثمان بن فودي.[46] ويرجح أن مصنفاته في حدود مائة وخمسون (150).

وتَّأْثِيرُ البلبالي شمل كذلك واحدا من أبرز علماء الدّولة الصُّكتية، ونقصد هنا الشيخ عبد الله بن فودي (ت.1244هـ/1829م) شقيق الشيخ عثمان، ورفيق دربه في طلب العلم، ووزيره، ومن أشهر تلامذته، بل حتّى أنّه أخذ عنه الفقه المالكي،[47] ومؤلّفات عبد الله بن فودي كثيرة تقدر بحوالي مائة وسبعون (170) مصنّفا، وله غزارته في التّأليف أكثر من شقيقه عثمان بن فودي.[48]

رغم الفترة الزمنية التي ارتحل فيها الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي إلى بلاد الهوسا، إلا أن آثار رحلته العلميّة استمرت لعدة قرون من بعده، ويتجلّى ذلك من خلال الاطّلاع على مصنّفات علماء الدّولة الصّكتية، فتجد أنّهم رجعوا للفقيه البلبالي واستدلوا بالفتوى المشهورة له حول مسألة **تجارة الرّقيق**، من أجل بيان حكمها، وخلال تتبع بعضٍ من مؤلفات هؤلاء العلماء، وقفت على نماذج من تأثُرِهم الواضح بالفقيه مخلوف البلبالي يمكن عرضها فيما يلي:

خلال حركة الشّيخ عثمان بن فودي الإصلاحّية، وجد نفسه مضطرا لتوضيح مسألة حكم تجارة الرق سؤاله عن من يجوز استرقاقه في هذه البلاد، التيّ كثر فيها بيع الأحرار، ومن لا يجوز استرقاقه؟. وفي جوابه قسم البلاد السّودانية على ثلاثة أقسام، واستدل بقول البلبالي حيث قال: "**القسم الثالث: البلاد التّي لا نعرف حكمها، هل يحكم بأنّها من بلاد الإسلام أو من بلاد الكفر. انتهى. وقال الفقيه الحافظ مخلوف البلبالي: "أن من يتحرى السّلامة لنفسه فلا يشتري إلّا من يسمي بلاده وينظر هل هو من بلاد الإسلام أو من بلاد الكفر**"[49].

استدل الشّيخ عثمان بن فودي مرة أخرى بفتوى الفقيه مخلوف البلبالي، ونجد ذلك في الفصل التّاسع والثلاثون ضمن كتابه «**بيان وجوب الهجرة على العباد**»، في بيان: حكم من وجد في أيدي الكفار مستعبدا وادعى أنّه حرّ مسلم لم يهاجر، وحكم من جلب من بلد كثر فيه بيع الأحرار وادعّى أنّه حرّ مسلم. حيث استدل الشّيخ عثمان بن فودي بكلام محمد بن عبد الكريم المغيلي في أجوبته على أسئلة الأمير الحاج أسكيا، ثمّ جاء بكلام من كتاب المعيار للونشريسي، وبعدها استدل برأي يوافق فيه البلبالي، حيث قال: "**كان الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت يحكم في وقته لمن يدعي الحرية منهم وينزعه ممن في يده حتّى يثبت الملكية، وإلاّ حكم بحريته منه وبه أيضا وأفتى الفقيه الحافظ المخلوف البلبالي. ثمّ قال ابن لبابة: البينة على مدعي الحرية**". ثمّ خرج ابن فودي بالرأي الآتي بخصوص هذه المسألة: وحالات أهل هذه البلاد السّودانية كما في الكتاب المذكور متقاربة، ولا يفرق بعضهم من بعض إلاّ هذا مسلم

أصلي، وهذا كافر أصلي ومن منا يلتبس الحال على من جلبوا إليهم، فلا يعرفون حقيقة المجلوب. (50)

رجع ابن فودي مرة أخرى إلى فتوى الفقيه مخلوف البلبالي، وهذه المرّة ضمن كتاب «**المسائل المهمّة**»، في المسألة الحادية عشر التّي بين فيها حكم شراء المجلوبين من البلاد التّي فشا إسلامهم وشاع، حيث ذكر أنّها على ثلاثة أقسام: الأول: البلاد التيّ لم يتقرر إسلام أهلها، والثّاني: البلاد التيّ تقرر إسلام أهلها، والثّالث: البلاد التي لا يعرف حكمها هل يحكم بأنّها من بلاد الإسلام أو بلاد الكفر لأنه لا يعرف ذلك أصلا، وجاء بفتوى البلبالي في بيان حكم القسم الثالث إذ قال: "**وأما المجلوب من القسم الثالث فقد قال فيه الفقيه الحافظ مخلوف البلبالي أن من يتحرى السّلامة لنفسه فلا يشتري إلا من يسمي بلاده وينظر هل هو من بلاد الإسلام أو من بلاد الكفر**".(51)

ومن جملة علماء الدولة الصُّكتية الذين تأثروا بالفقيه الحافظ مخلوب البلبالي نجد الإمام عبد الله بن فودي، فخلال حديثه عن مسألة الرق في كتابه «**ضياء السياسات**» ذكر النّص الآتي: "**أفتى الحافظ مخلوف البلبالي وقال: الرّق أصله الكفر وكفار السّودان كالنّصارى إلاّ أنّهم مجوس والمسلم منهم كأهل كانو و كاشنة وبرنو و غوبر وجميع سغي مسلمون، لا يجوز تملكهم إلاّ أن بعضهم يعتدي على بعض بالإغارة ظلما كالعرب فيبيعونهم ظلما ولا تحل تملك شيئ منهم ومن عرف أنه من تلك البلاد يترك سبيله ويحكم له بالحرية كما أفتى به فقهاء الأندلس كابن عتاب وغيره، ومن لم يدر هل هو من تلك البلاد أم لا فلا يشتريه من يتحرى السلامة إلاّ بعد النظر هل هو من تلك البلاد أم لا**".(52)

كما ذَكر محمد بلّو بن الشـــيخ عثمان بن فودي (ت.1253هـ/1837م) الفقيه مخلوف البلبالي في كتابه «**إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**» الذي يعتبر من أهم المصـادر التاريخية التي أرخت عن حركة الشـيخ عثمان بن فودي الإصـلاحية ودولته، حيث أشـار إليه

خلال ترجمته للعاقب بن عبد الله الانصمني الصّوفي أحد فقهاء الصّحراء الكبرى وبلاد السّودان، وذكر بأن هذا الأخير وقع له نزاع حول مسائل فقهية مع الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي.[53]

خاتمة:

يمكن القول في الأخير أن جهود الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي في الصّحراء الكبرى وبلاد السّودان، تعكس لنا شخصية أدّت دورا كبيرا في ربط المنطقتين من خلال نشر تعاليم الدّين الإسلاميّ واللّغة العربيّة وتكوين المتعلّمين والمثقّفين وتنوير الحكّام والملوك والسّلاطين وتأسيس مؤسّسات دينيّة وتعليميّة وثقافيّة، انعكست كلّها في تطوير الجانب الحضاريّ لتلك المنطقة وتدعيم استمرارية التّواصل على المدى البعيد، وكل هذا تجلى في منطقة بلاد الهوسا بشمال نيجيريا على مدى عدة قرون.

ومن أهمّ النتائج المتوصل إليها في هذا البحث:

- تيبلبالة إحدى حواضر الصحراء الكبرى، التيّ كان لها دور في ربط ضفتي الصّحراء الشّمالية بالجونبيّة، بحيث كانت محطّة تجارية بها قصور وعدد من الزّوايا، وهي بحاجة لمزيد من البحث والدّراسة.
- الفقيه مخلوف البلبالي واحد من علماء الجزائر الذّين ساهموا في تكوين المرجعية العلميّة في بلاد الهوسا، ولا تزال آثاره الحضاريّة مستمرة لحدّ الآن ولو بشكل غير مباشر.
- المدرسة العلميّة الجزائريّة على وجه العموم وفرعها المالكي على وجه الخصوص، ساهمت في تطوير وتعزيز المذهب المالكي وتأكيد التّواصل الحضاري بين الجزائر والأقاليم المجاورة في مختلف العصور، وما جهود الفقيه مخلوف بن صالح البلبالي إلى نموذجا من تلك النّماذج الكثيرة التّي لا تزال بحاجة لتعريفها للباحثين والعوام على حدّ السّواء.

- شخصية مخلوف البلبالي لا تزال غامضة، وبحاجة إلى البحث والتّفتيش خاصّة في مراكز الأرشيف التّي بها مخطوطات الفترة التيّ عاش فيها، ويمكن أن توجد معلومات أخرى عنه في مخطوطات تمبكتو بدولة مالي الحاليّة، ودولتي النّيجير ونيجيريا.
- ساهمت المصادر التّاريخية لعلماء الدّولة الصُّكتية في حفظ اسم مخلوف بن صالح البلبالي كفقيه مالكي مجتهد، أخذ على عاتقه توضيح حكم تجارة الرق في بلاد السودان.
- تأَثُر الشيخ عثمان بن فودي وعلماء دولته بالفقيه مخلوف بن صالح البلبالي، لهو أبرز دليل على أن هذا الأخير من المراجع العلمية المؤثرة في تاريخ منطقة أفريقيا الغربية.

قائمة المصادر والمراجع:

أ. **المصادر العربية:**

1. ابن فودي، عبد الله:

- ضياء السياسات والفتاوى والنوازل مما هو في فروع الدين من المسائل، (2013م)، مخطوط مطبوع ضمن كتاب: مختارات من مؤلفات الشيخ عبد الله بن فودي، ج3، تصحيح: محمد مودى شونى د.ط، دار اقرأ ، غدابيو- غوسو- نيجيريا.

2. ابن فودي، عثمان:

- **أجوبة محررة عن أسئلة مقررة**، (2013م)، مخطوط مطبوع ضمن: كتاب مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، ج2، تصحيح: عبد الله محمد سيفاو ومالم سراج موسى تلات مفرا، د.ط، دار اقرأ ، سامرو – غوسو–نيجيريا.
- **بيان وجوب الهجرة على العباد**، (2013م)، مخطوط مطبوع ضمن: كتاب مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، ج3، تصحيح: د. ثاني يوسف برنن تد، د.ط، دار اقرأ ، سامرو- غوسو- نيجيريا.
- **المسائل المهمة**، (2013م)، مخطوط مطبوع ضمن: كتاب مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، ج3، تصحيح: الأستاذ محمد مودى شونى وسليمان موسى ايثائي، د.ط، دار اقرأ ، سامرو–غوسو- نيجيريا.

3. البرتلي، محمد بن أبي بكر الصديق، (1981م)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني-محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.

4. بلّو، محمد ، (2013م)، انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، مخطوط مطبوع ضمن كتاب: مختارات من مؤلفات أمير المؤمنين محمد بلّو، ج1، تصحيح: الأستاذ الدكتور سليمان موسى والأستاذ محمد مودى شوني، دار اقرأ، سامرو- قوسو – نيجيريا.

5. التنبكتي، أحمد بابا بن أحمد أبو العباس:

- معراج الصّعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، (2000م)، تحقيق وترجمة: فاطمة الحراق وجون هانويك، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (2000م)، ط2، تقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، ليبيا.

6. السراج، أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الملقب بابن مليح، (1970م)، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040-1042هـ/1630-1633م، تحقيق: محمد الفاسي، د.ط، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس-المغرب الأقصى.

7. سعد، بن عبد الرحمن، ترتيب الأصحاب، مخطوط غير مؤرخ، المركز الإسلامي، جامعة صكتو، نيجيريا.

8. السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، (د.ت) تحقيق: الدكتور حماه الله ولد السالم، ط1، دار الكتب العلمية.

9. المجذوب، الفاسي عبد الكبير، (1996م)، تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، ج2، تحقيق: محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.

10. الوزان، الحسن ، (1983م)، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان.

ب. المراجع العربية:

11. الإدريسي، عبد الله حمادي، (2019م)، نبذة مختصرة من تاريخ تبلبالة، ط1، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر.
12. أكنوي صالح، (1990م)، دخول المذهب المالكي إلى شمال نيجيريا وانتشاره فيه، مجلة دارالحديث الحسنية، العدد 10، المغرب الأقصى.
13. باري، محمد فاضل علي وكريدية، سعيد إبراهيم، (2007م)، المسلمون في غرب إفريقيا – تاريخ وحضارة، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان.
14. الخولي، محمد عبد العظيم ، (2011م)، الأزهر الشريف والسودانيون في العصر المملوكي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
15. الزركلي، خير الدين الدمشقي، (2002م)، الأعلام، ج5، ط15، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان.
16. غلادنثي، شيخو أحمد سعيد ، (2016م)، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط3، دار الأمة، كانو–نيجيريا، 2016م.

ج. المراجع الأجنبية:

17. W. E. N. Kensdale,(1955), Field Notes on the Arabic Literature of the Western Sudan: Shehu Usumanuḍan Fodio, The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland No. 3/4, pp. 162-168.
18. Isma'il A.B. Balogun, (1973),The Life And Work Of The Mujaddid Of West Africa; 'Uthman B. Fudi Popularly Known As Usumanu Dan Fodio', Islamic Studies, Vol. 12, No. 4 , pp. 282-286.

د. مواقع الانترنت:

19.على موقع: https://ar.wikipedia.org/wiki/اللغة_البلبالية على الساعة 18:39- 2021/06/22

Une oasis du Sahara nord-occidental, Tabelbala, :نقلا من المرجع
.Dominique Champault, Paris CNRS, 1969

20.مقالة بعنوان: "مدينة ولاتة الموريتانية.. بوابة الصحراء الكبرى"، على الموقع: على الساعة 14:12- 2021/06/24

https://www.amrkhaled.net/Story/1001057/

الهوامش:

(1) تقع مدينة "**تمبكتو**" على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بما يعرف منحى نهر النيجر، وتعتبر هذه المدينة حلقة وصل بين السودان الغربي والصحراء الكبرى، وهي قريبة من نهر النيجر، كانت منذ أول نشأتها مدينة إسلامية وإحدى الحواضر الإسلامية الهامة في غرب إفريقيا، لمع اسمها في العالم الإسلامي وقد تخرج منها علماء ومؤرخون ساهموا في خدمة الإسلام وحضارته. وقد أسسها الطوارق في نهاية القرن (05هـ/11م). **أنظر**: محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، (2007م)، **المسلمون في غرب إفريقيا – تاريخ وحضارة**، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ص: 96-97.

(2) تقع مدينة "**كانو**" حاليا في دولة نيجيريا، وتعتبر من أهم ولايات الهوسا ومدنها السبعة المشهورة، وقد ازدهرت وصارت مركزا تجاريا هاما في غربي إفريقية، منذ القرن 15 عشر ميلادي، ويرجع تاريخها المدون إلى القرن العاشر الميلادي، ومن الصعب تحديد فترة دخول الإسلام إلى المدينة، ومن المرجح أن يكون دخوله مبكرا عن طريق التجارة لأنها كانت مركز تجاريا هاما، وتذكر المصادر التاريخية أن أول ملك أسلم في كانو هو الملك الحادي عشر علي ياجي بن ثاميا في النصف الأول من (09هـ/15م) على يد التجار الونغريين. **أنظر**: شيخو أحمد سعيد غلادنثي، (2016م)، **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا**، ط3، دار الأمة، كانو-نيجيريا، 2016م، ص: 39-40.

(3) احدى ولايات الهوسا السبع الأصلية (كاتسينا، كانو، زكزك، دورا، غوبر، غارن غبس، رنو)، ويرجح تاريخ نشأتها إلى القرن الحادي عشر ميلادي، كانت مركزا تجاريا وأول ملك فيها اعتنق الإسلام هو محمد كورو عام 1493م، وقد يكون على يد المغيلي الذي زار المدينة عام 1493م، وبعدها أخذت مركزا مهما في غرب افريقيا على المستوى التجاري والثقافي بفعل تراجع مكانة تمبكتو، وفي مطلع القرن التاسع عشر خضعت لحكم دولة الشيخ عثمان بن فودي. انظر: **نفسه**، ص: 43-44.

(4) **الدولة الصُّكتية**: أسسها الشيخ عثمان بن فودي في إفريقيا الغربية بصفة رسمية عام 1804م، واتخذ من مدينة صكوتو عاصمة له، واستمرت دولته طيلة قرن من الزمن، وحكمها العديد من الخلفاء، وامتدت على أراض ثلاث دول معاصرة (شمال نيجيريا، جنوب بوركينا فاسو، وجنوب شرق النيجر)، إلى أن سقطت بيد الاحتلال البريطاني عام 1903م.

(5) الإدريسي عبد الله حمادي، (2019م)، **نبذة مختصرة من تاريخ تبلبالة**، ط1، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ص: 10.

(6) للمزيد من التفصل حول هذه القصور وتاريخ تأسيسها ومؤسسيها. أنظر: **نفسه**، من الصفحة 10 حتى الصفحة 28.

(7) **نفسه**، ص: 29.

[8] من بين هؤلاء الرحالة نجد: الرحالة الإسباني الميورقي رامون، الاسباني الأخر ابراهام كراسك، والرحالة التولوزي الفرنسي أنسالم ديزلاكي في رحلته عام (808هـ/1405م)، خريطة اليهودي الميورقي الأسباني ميسيا دو فيلا داست، خريطة الميورقي الأسباني قابريال دو فالسيشا، الرحالة الأوروبي أنتوان مالفون، خريطة الأسباني **الميورقي بيترو روسولي**، الرحالة **حسن الوزان**، الجغرافي الإسباني **مارمول كربخال**، العلامة المغربي أبي عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشهير **بالسراج** الملقب بابن مليح في رحلته الحجية أنس الساري عام (1040هـ/1630م)، وغيرهم. أنظر: **نفسه**، من الصفحة 29 حتى الصفحة 43.

[9] الحسن الوزان، (1983م)، **وصف إفريقيا**، ج2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ص: 129.

[10] أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج والملقب بابن مليح، (1970م)، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040-1042هـ/1630-1633م**، تحقيق: محمد الفاسي، د.ط، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس-المغرب الأقصى، ص: 28.

[11] **نفسه**، ص: 28.

[12] **اللغة الكورنجية أو البلبالية**: من لغات السونغاي المنتشرة في غرب إفريقية، وتتبع شطرها الشمالي. وتندرج لغات السنغاي بدورها ضمن عائلة اللغات النيلية الصحراوية، وهي غريبة في أنها قد انعزلت في شمال أفريقيا وبالتحديد في واحة تبلبالة جنوب ولاية بشار الجزائرية بمحاذاة الحدود الجزائرية المغربية. عدد المتكلمين بها هو في حدود 3300 شخص. لا توجد إلا في الجزائر وينطقها كذلك سكان قصر الخملية جنوب منطقة تافيلالت المغربية. معنى المصطلح كورنجي هو 'لغة القرية'. تأثرت الكورنجي باللغة العربية وبالبربرية المحيطة. يعود وجودها في هذه المنطقة بالذات إلى استجلاب الفاتحين المغاربة في بلاد السودان لعدد من العبيد وتركهم في هذه الواحات وبقوا يتكلمون لغتهم إلى يومنا هذا. **أنظر**: 19. على موقع: https://ar.wikipedia.org/wiki/اللغة_البلبالية على الساعة 18:39- 2021/06/22. نقلا من المرجع: Une oasis du Sahara nord-occidental, Tabelbala, Dominique Champault, Paris: CNRS, 1969.

[13] الإدريسي عبد الله حمادي ، **مرجع سابق**، ص: 39.

[14] التنبكتي أحمد بابا بن أحمد أبو العباس (2000م)، **معراج الصّعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق**، تحقيق وترجمة: فاطمة الحراق وجون هانويك، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط 1: ص: 95.

[15] التنبكتي أحمد بابا بن أحمد أبو العباس، (2000م)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، ط2، ص: 608.

[16] المجذوب الفاسي عبد الكبير، (1996م)، **تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين**، ج2، تحقيق: محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ص: 871.

(17) هو عبد الله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي الصنهاجي المسوفي شقيق جدي الحافظ الزاهد الورع الولي، كان –رحمه الله– في غاية الزهد والورع والتوقّي قوي الحفظ جدًا، درس بولاتن وتوفي بها سنة تسع وعشرين وتسعمائة، مولده سنة ست وستين وثمانمائة، ومن تحريه أنه كان له خادم يبيع اللبن ويجمع ثمنه فباعه مرة بعد المغرب ثم اطلع له على ذلك بعد أن خلط الخادم ثمنه مع غيره من ماله فتصدق بالجميع لأجل تعاطيه البيع بالليل وكان مالًا له بال. **أنظر**: التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، **المصدر نفسه**، ص: 235.

(18) مدينة ولاته، أو كما يحب الموريتانيون تسميتها "بوابة الصحراء"، هي مدينة تقع في محافظة الحوض الشرقي جنوب شرق البلاد. وقد عرفت المدينة قديما باسم "بيرو" وكانت خاضعة لإمبراطورية غانا، ثم عرفت بعد ذلك باسم "إيوالاتن" أو"ولاتن" ثم الاسم الحالي: "ولاتة". ومنذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي عرفت مدينة "ولاتة" بداية نهضة فكرية كبيرة، وأصبحت أحد أهم مراكز الإشعاع الثقافي العربي الإسلامي، وهاجر إليها عدد كبير من علماء تيمبوكتو وفاس وتلمسان ومراكش، كما استقر بها بعض أهالي توات بجنوب الجزائر، وبعض العائدين من الأندلس. ولقد زارها الرحالة ابن بطوطة سنة 753هـ=1352م، ووصف أهلها بأنهم محافظون على الصلوات وعلم الفقه وحفظ القرآن، ونوه بدورها الثقافي والتجاري وكرم أهلها. **أنظر**: مقالة بعنوان: "**مدينة ولاتة الموريتانية.. بوابة الصحراء الكبرى**"، على الموقع: على الموقع: على الساعة 14:12– 2021/06/24 https://www.amrkhaled.net/Story/1001057/.

(19) يقصد هنا «رسالة ابن أبي زيد القيرواني» للشيخ الإمام الفقيه الحجة «أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير (ت386هـ/996م)»، من أشهر وأنفس ذخائر التراث المالكي، بل المصدر الثالث في المذهب بعد الموطأ والمدونة، والكتيب على صغر حجمه واختصاره، حوى بين دفتيه أربعة آلاف مسألة، يجب على المكلف معرفتها ولا يسعه جهلها، وهذا يدل على أن الفقيه مخلوف البلبالي من علماء المذهب المالكي.

(20) البرتلي محمد بن أبي بكر الصديق، (1981م) **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني–محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، ص: 146.

(21) محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي، المكناسي ثم الفاسي (مواليد 841 هـ/1437م، مكناس – توفي 910 هـ/1504م. بفاس) من أعلام المغرب الأقصى، أتقن العديد من ضروب العلم والمعرفة، كالقراءات، والتفسير، والحديث، واللغة والتاريخ والحساب، لكنه اشتهر بالفقه والفتوى، وله مؤلفات كثيرة مثل: «كليات فقهية على مذهب المالكية »، «الروض الهتون » في أخبار مكناسة، و «الفهرسة المباركة » في أسماء محدثي فاس وكتّابها، ولم يقتصر ابن غازي على التعليم والتأليف؛ بل انضم لصفوف المجاهدين لحماية الثغور المغربية من الغزاة الأوروبيين. **أنظر**: الزركلي خير الدين الدمشقي، (2002م)، **الأعلام**، ط15، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، 2002م، ج5، ص: 336.

(22) التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، **مصدر سابق**، ص: 608.

(23) محمد عبد العظيم الخولي، (2011م)، **الأزهر الشريف والسودانيون في العصر المملوكي**، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ص: 47.

(24) أنظر: الصفحة 10 من هذا البحث.

(25) التمبكتي، **نفسه**، ص: 608.

(26) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن اليسيتني الفاسي، من أهل فاس التي ولد وتوفي فيها (898-972 هـ/1492- 1564م)، يرجع نسبته إلى (بسّيتن) إحدى قبائل البربر بالمغرب، من فقهاء المذهب المالكي، من المجتهدين، قضى كل حياته يطلب العلم وكان حريصا على نشر العلم، له تآليف منها: جزء على التاجوري، الرد على مخلوف، الرد على الزقاق، شرح مختصر خليل، تأليف في حقوق السلطان على الرعية وحقوقهم عليه، وغيرها. **أنظر**: التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج المؤلف، **مصدر سابق**، ص: 594-595. الزركلي، **مرجع سابق**، ج6، ص: 6.

(27) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج المؤلف، **مصدر سابق**، ص: 596.

(28) العاقب بن عبد اللَّه الانصمني المسوفي من أهل أكدس بلدة قريبة من بلاد السودان، فقيه مالكي، ألّف جزء في وجوب الجمعة بقرية "انصمن" خالف غيره من شيوخ بلده وأرسلوه لعلماء مصر فصوبوه، له تعاليق من أحسنها تعليقه على قول خليل، والجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود، وأجوبة الفقير عن أسئلة الأمير أجاب فيها السلطان أسكن الحاج محمد وغيرها، أخذ عن الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وعن الإمام السيوطي لما حج وغيرهما، لم نعثر عن تاريخ وفاته لكن ماهو ثابت أنه كان على قيد الحياة في حدود عام 950هـ. **أنظر**: **نفسه**، ص: 353.

(29) **نفسه**، ص: 353.

(30) يسمى باللهجة البلبالية **إيامِي** ويقع على بعد 01 كلم جنوب شرق زكري المسمى بزاوية سيدي زكري، كما أنه يقع جنوب غرب قصر الشرايعية، وأصول ساكنته متعددة. **أنظر**: الإدريسي عبد الله حمادي، **مرجع سابق**، ص: 23.

(31) **نفسه**، ص:26.

(32) الإدريسي عبد الله حمادي، **المرجع السابق**، ص: 26.

(33) **نفسه**، ص: 26-27.

(34) السعدي عبد الرحمن، **تاريخ السودان**، (د.ت) تحقيق: الدكتور حماه الله ولد السالم، ط1، دار الكتب العلمية، ص: 75.

(35) **نفسه**، ص: 75.

(36) أكنوي صالح، (1990م)، **دخول المذهب المالكي إلى شمال نيجيريا وانتشاره فيه**، مجلة دارالحديث الحسنية، عدد10، المغرب الأقصى، ص: 234.

(37) شيخو أحمد سعيد غلادنثي، **مرجع سابق**، ص: 61-62.

(38) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، **مصدر سابق**، ص: 608.

(39) الخولي محمد عبد العظيم، **مرجع سابق**، ص: 47.

(40) عنوانان لكتاب واحد، والكتاب في أصله جواب عن استفتاء مطول، بعثه سعيد بن إبراهيم الجراري إلى فقهاء السودان، وخصوصا أحمد بابا، وتدور أسئلته حول: موقف الفقه المالكي من الرقيق المجلوب من البلاد السودانية المعروفة بإسلامها، ما حكم المشرع من الرقيق المجهول الهوية؟، تبيين سيرة النبي وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم في تعاملهم مع الرقيق المجلوب من الحبشة، تفنيد أسطورة دعاء نوح على ابنه حام وعقبه، الضوابط الأخلاقية للاسترقاق عند المسلمين، استرقاق العرب، وضعية المولدين، وأما

مصادر التنبكتي في كتابه هذا، فهي متنوعة منها: نوازل أبي الأصبغ ابن سهل، وفتوى مخلوف بن صالح البلبالي حول رقيق السودان، وتاريخ ابن خلدون الكبير المسمى العبر، وكتاب السيوطي في هذا الموضوع المسمى رفع شأن الحبشان، وغيرها. **أنظر كتاب**: معراج الصّعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، أحمد بابا التنبكي، **مصدر سابق**.

(41) التنبكتي، معراج الصّعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، **مصدر سابق**، ص: 19.

(42) **الونغريين**: يذهب الكثير من الباحثين إلى أنهم أول من نشر الإسلام والمذهب المالكي في بلاد الهوسا، وأصلهم من بلد ونغرا الذي اشتهر بكثرة الذهب وجودته في القرون الغابرة، ويقع على الضفة الغربية لنهر السنغال، وكان تحت حكم مملكة مالي حينما هاجر هذا الوفد من الونغريين الذين بلغ عددهم أربعين شخصا، قد وصلوا كانو حينذاك يقودهم عبد الرحمن زيتي، وأول شيئ فعلوه في كانو هو اتصالهم بالملك ودعوته إلى الإسلام وإلى نشره في مملكته وبناء المساجد، وإقامة شعائر الإسلام فقبل الملك ذلك وأسلم، وهذا الملك هو علي ياجي بن ثمايا وهو الملك الحادي عشر الذي حكم خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر ميلادي. **أنظر**: شيخو أحمد سعيد غلادنثي، **مرجع سابق**، ص: 40.

(43) ومن بين هؤلاء العلماء نذكر المغيلي المعروف هناك بعلاقته مع سلطان كانو محمد رمفا، وكذلك أحمد بن عمر بن محمد أقيت (جد أحمد بابا) وعبد الرحمن سقين المغربي. **أنظر**: التنبكتي، معراج الصّعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، **مصدر سابق**، ص: 19-20.

(44) التنبكتي، معراج الصّعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، **مصدر سابق**، ص: 95.

(45) W. E. N. Kensdale,(1955), **Field Notes on the Arabic Literature of the Western Sudan: Shehu Usumanuḍan Fodio**, The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland No. 3/4, pp. 162-168.

(46)Isma'il A.B. Balogun, (1973),The Life And Work Of The Mujaddid Of West Africa; 'Uthman B. Fudi Popularly Known As Usumanu Dan Fodio', Islamic Studies, Vol. 12, No. 4 , pp. 282-286.

(47) محمد نور الدين موسى النيجيري، (2016م)، **عبد الله بن فودي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن**، ط1، دار الأمة، كانو–نيجيريا، ص: 33.

(48) خلف عبد الله بن فودي تراثا مخطوطا في شتى أصناف العلوم الإسلامية، حيث ألف في علوم القرآن والتفسير والحديث وعلومه والفقه وأصوله، واللغة العربية نحوها وصرفها وعروضها وقرض شعرها، وألف في العقيدة والمنطق والتاريخ والتراجم والتصوف والسياسة الشرعية والقضاء، ونظم القصائد والكتب في الألفيات، وكتب في السير والتراجم والتاريخ، وغير ذلك من العلوم المعروفة في عصره وبيئته، وله حوالي مائة وسبعين مؤلفا (170) كما ذكر ذلك تلميذه الشيخ سعد بن عبد الرحمن. **أنظر**: سعد بن عبد الرحمن، **ترتيب الأصحاب**، مخطوط غير مؤرخ، المركز الإسلامي، جامعة صكتو، نيجيريا، ص:12.

(49) عثمان بن فودي، (2013م)، **أجوبة محررة عن أسئلة مقررة**، مخطوط مطبوع ضمن: كتاب مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، ج2، تصحيح: عبد الله محمد سيفاو ومالم سراج موسى تلات مفرا، د.ط، دار اقرأ ، سامرو–غوسو–نيجيريا، ص: 163.

(50) عثمان بن فودي، (2013م)، **بيان وجوب الهجرة على العباد**، مخطوط مطبوع ضمن: كتاب مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، ج3، تصحيح: د. ثاني يوسف برنن تد، د.ط، دار اقرأ ، سامرو–غوسو– نيجيريا، ص: 117.

(51) عثمان بن فودي، (2013م)، **المسائل المهمة**، مخطوط مطبوع ضمن: كتاب مختارات من مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي، ج3، تصحيح: الأستاذ محمد مودى شونى وسليمان موسى ايثائي، د.ط، دار اقرأ ، سامرو–غوسو– نيجيريا، ص: 311.

(52) عبد الله بن فودي، (2013م)، **ضياء السياسات والفتاوى والنوازل مما هو في فروع الدين من المسائل**، مخطوط مطبوع ضمن كتاب: مختارات من مؤلفات الشيخ عبد الله بن فودي، ج3، تصحيح: الأستاذ محمد مودى شونى د.ط، دار اقرأ ، غدابيو– غوسو– نيجيريا، ص: 63.

(53) محمد بلّو، (2013م)، **انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، مخطوط مطبوع ضمن كتاب: مختارات من مؤلفات أمير المؤمنين محمد بلّو، ج1، تصحيح: الأستاذ الدكتور سليمان موسى والأستاذ الدكتور محمد مودى شوني، دار اقرأ، سامرو– قوسو – نيجيريا، ص: 144.

بلاد شنقيط و دورها في نشر الاسلام و الثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا من ما قبل القرن 5هـ-11م إلى مطلع القرن 14هـ-20م

Bilad Chinqit and its role in the spread of Islam and arabic culture and islamic in west Africa from before the eleventh century AD to the turn of the twentieth century

سارة عزيزي
جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة- الجزائر
azisarah@yahoo.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/10/26	2021/11/10	2021/../..

الملخص:

هذه الدراسة جاءت بعنوان : "بلاد شنقيط و دورها في نشر الاسلام و الثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا" ؛ و هي تهدف للتعريف برقعة جغرافية من منطقة الصحراء الكبرى الافريقية "بلاد شنقيط" و التي يجهلها الكثيرون و يجهلون التسمية نفسها ، خاصة مع نكبة الاحتلال الفرنسي لها مع مطلع القرن العشرين ؛ الذي عمل على طمس مقوماتها الثقافية بالمنطقة، و ما كانت تقوم به من ادوار ، و لم تسلم من ذلك حتى تسميتها التي حولها من بلاد شنقيط الى موريتانيا .

كما تهدف الدراسة الى ابراز الدور الكبير الذي كانت تؤديه في سبيل نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا بعدما عملت على نشرها في الصحراء الكبرى ، و ذلك منذ عهود الاسلام الاولى بها ، بداية بجهود ملوك صنهاجة من حين لآخر ، ثم في شكل فتح منظم مع المرابطين، لتتواصل فيما بعد مع شيوخ المحاضر الصحراوية و الطرق الصوفية حتى تغلغل الاسلام بها وتعمق بشكل أكبر .

الكلمات المفتاحية:بلاد شنقيط؛ شنقيط؛ موريتانيا؛ الشناقطة.

Abstract:

This study aims to introduce a geographical region of the big Sahara ; BiladChinqit , that many people ignors it even its naming , especially with the advent of the French occupation , which worked to oblirate its cultural components in the region , and the roles which had played even its naming didn’t spare ; it changed it from “Chinqit” to “Mauritania” , also it aims to highlight the role that did in order to spread Islam and Arabic culture and Islamic in West Africa after spreading it in the big Sahara , since the first Islamic periods there , starting with the efforts of Sanhaja from time to time , then in the form of an orderly invasion by Almoravid , and it continued later with the sheikhs of desert schools and Sufi orders until Islam penetrated it more .

Key words: BiladChinqit; Chinqit; achanaqita; Mauritania.

مقدمة:

لقد كان لظهور المراكز الثقافية ببلاد المغرب عقب الفتح الإسلامي له كالقيروان والزيتونة وفاس و تلمسان وغيرها ، أن أصبحت تمثل مصدر إشعاع ثقافي وحضاري بكامل المنطقة ومنهل الكثيرين ، و أخذت هذه الثقافة تتسرب إلى المناطق المجاورة فبلغت الصحراء الكبرى أين لعب تجار القوافل القادمين إليها من تلك البلاد الدور الكبير في ذلك ، فكانوا يحملون إلى جانب بضائعهم رسالة الإسلام و الثقافة العربية . و لعل أهم جزء من تلك الصحراء الكبرى و الذي حظي بنصيب أوفر من المؤثرات العربية الإسلامية كان جانبها الغربي أو منطقة غرب الصحراء ، و التي عرفت عبر تاريخها بعدة تسميات من أشهرها "بلاد شنقيط " ، هذه التسمية التي ارتبط ذكرها بكل ما هو ثقافي، إذ بعدما نهلت هذه الأخيرة من معين الثقافة العربية الإسلامية ، أصبحت هي الحاملة لهذه الثقافة في فترة من فتراتها ، و الناقلة لها إلى مختلف مناطق الصحراء الكبرى وفي منطقة غرب إفريقيا و ذلك على مر القرون ، و سيصبح صيتها ذائعا في جميع بلاد المغرب والمشرق ، و خاصة ما بين القرنين الحادي عشر و الثالث عشر الهجريين (17 و 19 م) و هي الفترة التي عرفت فيها بلاد شنقيط ازدهارها الثقافي.

1-التعريف ببلاد شنقيط:

شنقيط هي مدينة من مدن آدرار(1)، واقعة على جبل في جهة غرب الصحراء الكبرى(2)، وقد اختلف في تحديد تاريخ تأسيسها ، إلا أن جل الباحثين يرجع تأسيسها إلى سنة 660 هـ / 61-1262 م ، مع اعتماد البعض منهم لتواريخ أخرى مثل 620 هـ / 1224م ، أو في القرن 9 هـ / 15 م (3) ، وتعد هذه المدينة امتدادا حضاريا وبشريا لمدينة قديمة هي "آبير" ، والتي يرجع تأسيسها إلى سنة 160 هـ / 777 م ، إذ أن المجموعة السكانية التي كانت تعمر هذه الأخيرة هي نفسها ال تي أسست المدينة الجديدة (شنقيط) .(4)

و قد ورد أول ذكر لشنقيط في مطلع القرن العاشر الهجري / 16 م ضمن حوليات البرتغاليين التي وصفتها بأنها قرية صغيرة(5). ويعد عبد الرحمن السعدي أول المصادر المكتوبة باللغة العربية التي ذكرت اسم شنقيط (6) ، حين قال: "...**أما اكل سلطان توارق فقد بقي في أيام سلطنته على حالهم القديمة...وفوض أمر البلد على تنبكت كي محمد نض وهو صنهاجي من قبيلة اجر أصله شنجيط (7)وهو أصل جميع هذه القبيلة...**"(**8**).

و أما بلاد شنقيط ، فهي التسمية التي أطلقها أهل المشرق على الجزء الغربي من الصحراء الكبرى(9) ، لما اشتهرت به مدينة شنقيط من مكانة هامة في النشاط الديني و الثقافي ، و قد أخذت شنقيط في الإزدهار بداية من القرن 11 هـ /17 م ، وبلغت أوجه خلال القرنين 12 و13 الهجريين/ 18 و 19 م ، و هي الفترة التي منحت فيها شنقيط اسمها للبلد كله (10) ، وبدأ هذا الإسم يتجسد أكثر عندما أصبحت قوافل الحجيج المنطلقة منها كل سنة تعرف بركب بلاد شنقيط ، كما برز عدد من فقهائها ببلاد المشرق والمغرب الإسلاميين ، حيث كانوا يدرّسون بمراكز الثقافة العربية الإسلامية المشهورة آنذاك كالزيتونة والأزهر خلال القرنين 12 و13 الهجريين، و هو ما أسهم في منحها هذه الشهرة بحكم أن

هؤلاء الفقهاء عرفوا في تلك الجامعات بالشناقطة (11)، و هو ما دعا جميع المهاجرين من أهل هذه البلاد أيا كانت مواطن قبائلهم ومساقط رؤوسهم إلى الإنتساب إلى بلاد شنقيط (12) . ونتيجة لذلك احتلت شنقيط في ذاكرة الشعوب الإسلامية مكانة مبالغا فيها، مقارنة بمدن بلاد الصحراء الأخرى، حتى اعتبرها البعض سابع مدينة في الإسلام (13).

و قد اختلفت المصادر في وضع حدود ثابتة لبلاد شنقيط، إذ أننا نجد تباينا بخصوص هذا الموضوع من مصدر لآخر، وحسب المختار ولد حامد، فإن حدود البلاد هي أوسع من بحدود جمهورية موريتانيا الحالية، إذ تشمل بالإضافة إلى موريتانيا مناطق أخرى مجاورة تربطها بها وحدة اللغة والعادات والتقاليد والنسب والتاريخ ، وهذه المناطق هي :

- منطقة الصحرء الغربية.
- المنطقة الواقعة في جنوب غربي الجزائر .
- منطقة في غرب و شمال جمهورية مالي (14) .

وعلى العموم ، فإن بلاد شنقيط هي ذلك الجزء الغربي من الصحراء الكبرى ، الذي يفصل إفريقيا الشمالية عن غرب إفريقيا(15).

و قد عُرفت بلاد شنقيط بعدة أسماء نذكر منها : صحراء الملثمين ، بلاد التكرور ، بلاد المغافرة ، تراب البيضان ، و موريتانيا.

2-وصول الاسلام إلى بلاد شنقيط:

لقد واكب دخول الإسلام إلى بلاد شنقيط الحملات الجهادية التي اكتسحت الشمال الإفريقي وذلك في القرن الأول الهجري ، وبلغت أصداؤها الصحراء الكبرى وشمال السودان(16)، فاعتبارا من سنة 62 هـ (682 م) حدث أول اتصال بين جيوش الفتح

الإسلامية بقيادة عقبة بن نافع الفهري ، والقبائل الصنهاجية ، وذلك خلال حملة عقبة الثانية على المغرب أين بلغ المغرب الأقصى ، و كان أول ما فتح منه طنجة ثم وليلى ، ثم توالت الفتوح في أنحاء البلاد ، فتقدم إلى السوس وفتح عاصمته تارودانت (17) ، وقاتل قبائل مسوفة من أهل اللثام وراء السوس(18)، ثم توجه الى الساحل الأطلسي و رفع يديه الى السماء و قال : "اللهم اشهد أني بلغت المجهود ، و لولا هذا البخر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك (19) .

بالاضافة الى مسوفة ، تذكر المصادر العربية الوسيطية قبيلة اخرى من قبائل صنهاجة اللثام أسلمت على يد عقبة بن نافع الفهري ، و كانت تقطن المنطقة الوسطى من صحراء الملثمين ، و في هذا يقول ابن أبي زرع : "**...و مدينة تاتكلاسين يسكنها قبيلة من صنهاجة يعرفون ببني وارث ، و هم قوم صالحون على السنة و الجماعة أسلموا على يد عقبة بن نافع الفهري أيام فتح المغرب** ..." (20) . و يعتقد بعض الباحثين أن اتصال الفاتحين العرب بقبائل الملثمين أثناء فتوحات عقبة لم يقتصر على بني وارث و مسوفة، و إنما شمل كل قبائل الصحراء ، خاصة لمتونة، إذ لا شك أن _حسب ذلك الرأي_ أنها لم تذعن لعقبة من أول جولة ، بل قاومته ، و اشتركت فيما بينها في هذا القتال دفاعا عن كيانها (21) .

و استؤنفت عملية الفتح في إفريقية في عهد موسى بن نصير ، فسير هذا الأخير حملة من إفريقية الى طنجة حتى بلغ السوس الأدنى و هو بلاد درعة ، فخضعت له المنطقة ، و جعل لأهلها من يفقههم في أمور الدين ، و قام بإنشاء المساجد في البلاد التي افتتحها كمسجد أغمات هيلانة (22) . و كانت سياسة موسى بن نصير متممة للسياسة التي انتهجها أبو المهاجر وحسان بن النعمان، اللذين عملا قبله على محاولة استمالة قبائل البربر للإسلام ؛ إذ أخذ موسى يعمل على إشراك البربر في جيوشه ، و تكليف الفقهاء بتعليمهم قواعد الإسلام ؛ فنتج عن تلك السياسة اندماج المغرب في جسم الدولة ، إذ يدين بدينها ، و يتكلم لغتها (23) . وهكذا امتد النفوذ العربي الإسلامي أثناء ولاية موسى بن نصير إلى غاية

المناطق الصحراوية بعد أن تمكن هذا الأخير من فتح كافة أرجاء المغرب الأقصى خلال الفترة مابين 705 و 709 م ، و ولى ابنه مروان بن موسى على منطقة السوس الأقصى المجاورة لصحراء الملثمين ؛ و يعتقد أن مروان اتصل بهؤلاء ، و أنهم جددوا اعتناق الإسلام على يده او على يد موفدين من طرفه دعاة أو قادة حملات عسكرية (24) .

و استمرت جهود الفاتحين في نشر الإسلام ؛ ففي سنة 116 هـ 734 م ، قاد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع والي هشام بن عبد الملك على المغرب ، بنفسه حملة الى المغرب الأقصى فبلغ السوس الاقصى و أرض السودان و غنم مغانم كثيرة (25) . و بصفة عامة ، فإن مرحلة الحملات العسكرية على الصحراء ، و التي امتدت بين سنتي 682 و 745 م ، و إن لم تفض إلى دخول جميع تلك المنطقة في الإسلام ، و تطبيقه لتعاليمهم بشكل مباشر ، إلا أنها جعلتهم على علم به ، و ربطتهم بمراكز إشعاعه في الشمال ، و أصبح الدور بعد ذلك على التجار و الدعاة المسلمين في سبيل نشر هذا الدين و بطريقة سلمية هادئة (26) .

3-دور بلاد شنقيط في نشر الإسلام والثقافة العربية الاسلامية في غرب إفريقيا:

لقد مهدت حملات الفتح العسكرية لدخول الإسلام لبلاد شنقيط عن طريق إشعار السكان بالدين الجديد، بل وأدت إلى اعتناق الملثمين له ولو بصورة شكلية؛ كما كان لقادة تلك الحملات وكذلك الولاة والحكام العرب المسلمين في شمال افريقيا دور في تذليل العقبات أمام عابري الصحراء، وذلك عن طريق حفر الآبار على طول الطرق التي تربطها بالمغرب، خاصة في المناطق الوعرة و الرملية، مما ساعد على تدفق التجار العرب والبربر المسلمين إلى الصحراء ، والذين أثروا بشكل مباشر في ثقافة سكانها ، خاصة باستقرار بعضهم بها (27).

و على الرغم من أن إسلام الملثمين في الصحراء ظل سطحيا حتى منتصف القرن 5 هـ/ 11م تاريخ ظهور حركة المرابطين، إلا أن المصادر تشير إلى أن هنالك جهودا قد بُذلت في سبيل نشر الإسلام في بلاد السودان من طرف ملوك صنهاجة ، و ذلك منذ القرن 3 هـ / 9م

. ومن هذه المصادر على سبيل المثال ابن الخطيب أثناء حديثه عن قبائل صنهاجة ، إذ يقول :" ... **وكانوا على السنة و الجماعة يجاهدون السودان ، و كان أول ملوكهم يرلونان(28) اللمتوني، وهو ملك عظيم دان له من ملوك السودان واتقوه بأداء الجزية أزيد من عشرين ملكا ... إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين** ... "(**29**).و بالتالي فقدكانت هناك جهود لبلاد شنقيط في سبيل نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، و مع ذلك لا يمكن الحديث عن جهاد مستمر يستهدف نشر الإسلام بالمنطقة إلا ابتداء من قيام حركة المرابطين .

و عن قيام حركة المرابطين فقصتها معروفة و قد تداولتها عديد المصادر و سوف لن نتطرق إليها و لا إلى جهود المرابطين في الشمال لأنه ليس موضوعنا، بل سنكتفي بالحديث عن دور المرابطين – و بالتالي بلاد شنقيط — في نشر الإسلام في غرب إفريقيا.

فبعدما استولى عبد الله بن ياسين (زعيم حركة المرابطين) على الصحراء و إخضاعه لعديد من القبائل الصحراوية بداية من جدالة فلمتونة ثم مسوفة حتى أجابته جميع القبائل الصحراوية ودخلت في دعوته ، توفي و خلفه من بعده من أتباعه المخلصين يحي بن عمر وأخوه أبو بكر بن عمر الذي جاء بعده ، فواصل الأخوان عملية الفتح في بلاد السودان . (30)

و لما تمكن الأمير أبو بكر بن عمر من استئصال شوكة برغواطة في الشمال وإخضاعها لسلطانه ، عاد إلى الصحراء لإصلاح أحوال القبائل المتصارعة هناك ، مفوضا أمر المغرب إلى يوسف بن تاشفين وذلك في سنة 453 هـ ، وفي هذا يقول ابن خلدون : "... **وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعد ، ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء ، حيث أصل أعياصهم ووشائج أعراقهم ومنيع عددهم ، فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة ، وتلافى أمره بالرحلة** ... "(**31**). و بعدما تمكن أبو بكر من إخماد الفتنة بين القبائل المتصارعة، فتح بابا من جهاد السودان فاستولى على نحو مسيرة ثلاثة أشهر من بلادهم(32).

3. 1. دور المرابطين في تصحيح الدين الاسلامي في غرب افريقيا :

لم تكن العلاقة طيبة بين مملكة غانة و جيرانها الملثمين ، إذ كانت المنازعات تطبع ذلك بينهما ، وكثيرا ما كان يعتدي كل طرف على أراضي الطرف الآخر . فكان هدف أبي بكر الرئيسي هو تكريس جهوده للإستيلاء على غانة ، و إخضاعها لسلطة المرابطين (33).

لقد كانت الظروف مناسبة له لإعلان الجهاد ضد امبراطورية غانة ، إذ كانت هذه الأخيرة في بداية تفكك سياسي أثناء تلك الفترة ، تمثل في محاولة بعض الأقاليم والممالك التي كانت تابعة لها الإنفصال و الثورة ضد الحكم الإمبراطوري ، ومع ذلك فقد تمكنت من الصمود أمام محاولات المرابطين لفترة طويلة ، إذ لم يتم لهم هزيمتها ودخول عاصمتها كونبي إلا بعد 14 سنة من الحروب (34)، و ذلك بعدما تم الإستيلاء على مدنها الواحدة تلو الأخرى من طرف المرابطين ، وكان سقوط العاصمة في أيديهم سنة 469 هـ /1076م(35).

و قام الأمير أبو بكر ببناء الرباطات والمساجد ، فكثر عدد الداخلين في الإسلام ، وترك أمر امبراطورية غانة لابنه أبي يحيى كي يتابع نشر الإسلام بها ، بينما واصل هو فتح بلاد السودان حتى وصل بلاد وانقارة(36) حيث مناجم الذهب(37)؛ ويذكر ابن أبي زرع ما وصل إليه الأمير أبو بكر بقوله : " ... **استقام له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان ...**"**(38)**.

و كان لنجاح أبي بكر هذا من الأثر، أن تمكن من السيطرة على حقول الذهب الغنية، والتي تعتبر أهم مصادر الثروة في السودان في تلك الفترة ، كما ازدادت هجرات قبائل المرابطين إلى تلك الأنحاء ، مما أدى إلى اختلاطها بسكان المنطقة ، وبالتالي ازداد عدد الداخلين في الإسلام (39) .

ثم سلم المرابطون المشعل إلى المسلمين السودانيين ، وبقوا بجانبهم يساعدونهم ويحثونهم على جهاد الوثنيين ، وأصبح ملوك السودان بدورهم يعملون على نشر الإسلام بالمناطق التي يضمونها إليهم (40) .

و رغم هذا كله ، فإن هناك شعوبا سودانية ظلت متمسكة بوثنيتها مثل شعب الموسي الذي بقيت مملكته صامدة في وجه المرابطين ، ولم يخترقها الإسلام إلا خلال فترات متأخرة(41)؛ بل إن بعض الجماعات السودانية التي دخلت في الإسلام بقيت تحافظ على بعض العادات الوثنية ؛ واستمرت تلك المظاهر تميز الإسلام السوداني إلى وقت قريب ، ولم تأخذ في الزوال تدريجيا إلا بمواصلة هؤلاء السودانيين تعلم العلوم الشرعية عن طريق جهود الفقهاء الصحراويين ، الذين كانوا يقيمون في المدن والقرى السودانية لتحقيق ذلك الغرض ، فضلا عن الدور الذي كانت تقوم به مراكز الإشعاع الثقافي الصحراوية في آزوكي ، و تينيكي ، و ولاتة ، وتيشيت وغيرها ، في نشر المعارف الإسلامية بين السودانيين ، الذين كانوا يفدون إليها للتعلم والعودة إلى بلدانهم بعد تخرجهم على أيدي الفقهاء بتلك المراكز ، ليتحولوا بدورهم إلى معلمين في أوطانهم ؛ و قد اتخذت العديد من الجماعات السودانية اللغة العربية لغة للتواصل و التفاهم بين المجموعات الإثنية التي لكل منها لغتها الخاصة في غرب إفريقيا(42).

3. 2. دور شيوخ المحاضر و الطرق الصوفية في نشر التعليم العربي الاسلامي والتصوف في غرب افريقيا :

و استمر دور بلاد شنقيط في نشر الإسلام في منطقة غرب إفريقيا إلى مابعد مرحلة المرابطين ، وظل حضور الشناقطة وتأثيرهم يتنامى في المناطق الإفريقية على مر القرون.

و كان للمحاضر الصحراوية (43) الدور الكبير في نشر الإسلام و العلم في تلك المناطق من إفريقيا ؛ وقد تربى الكثير من العلماء و المجاهدين و من أعيان الأفارقة في تلك

المدارس ، فكان منهم من قدم البلاد و تعلم على أيدي علمائها ، أو عن طريق علماء شناقطة جالوا بأنفسهم في أقطار الأفارقة أو انتدبوا من ينوبهم للدعوة للإسلام و نشر العلم بها (44) .

و قد تلقى زعيم دولة الأئمة في فوتا ، الإمام عبد القادر، العلم عن مرابطة شنقيطية هي الشيخة خديجة بنت العاقل ؛ و كان للحارث بن محنض الشقروي ، الفضل في نشر العلم في منطقة فوتا جالون ، فأخذ عنه عدد من علماء تلك المنطقة مثل الحاج أحمد مختار ساخو ، وأحمد مختار آن تتلمذ عليه الحاج مالك سي و تيرنو مودي بوبكر و الشيخ بابا بن الصديق له(45).

و كان لأحمد بن أمين بن الفراء التندغي (46) منزلة عظيمة عند رؤساء السودان ، و قد تولى القضاء لتين رئيس بول(47).

كما كان للطرق الصوفية دور كبير في نشر الإسلام في إفريقيا الغربية وتدعيمه بها ، فقد أدخل سيدي مولود فال الشنقيطي التيجانية إلى السينغال و لقن وردها للحاج عمر تال زعيم دولة فوتا ، الذي قام بدوره ، ببث تعاليم الطريقة وإذاعتها ، فانتشرت في غرب إفريقيا (48)؛ كما انتشرت التيجانية في السينغال أيضا على يد الحاج مالك السينغالي (ت: 1340) ، وعلى يد الشيخ الحاج عبد الله نياس (ت:1340) ، و ابنه الشيخ إبراهيم الكولخي(49) ، الذي بلغت هذه الطريقة أوج انتشارها على يده و أيدي مريديه من الشناقطة ، خصوصا مع الشيخ الهادي بن سيدي مولود فال ، الذي نشرها و معارفها في نيجيريا ، كما امتد نفوذ الشيخ حماه الله إلى مالي و ساحل العاج وغينيا وغيرها(50) ، و كان الحاج مالك سي قد أخذ عن محمد عالي بن محنض و درس في محاضر العلويين ، و هو باني ضريح سيدي مولود فال . كما كان للشيخ إبراهيم بن الحاج عبد الله نياس الكولخي إجازات تلقاها من علماء شناقطة ، كمحمد محمود بن محمد الصغير بن أحمد الصغير التيشيتي ، والحاج عبد الله

بن الحاج العلوي و الشيخ محمد سعيد بن الشيخ أحمد الشيخ محمد الحافظ(51)، كما امتد نفوذ الشيخ حماه الله إلى مالي وساحل العاج وغينيا وغيرها(52).

كما ظهر في السينغال أيضا الشيخ أبو محمد بن بونعامة الملقب ب "الشيخ بوكنتة" فكان له أتباع بلغ عددهم أوائل القرن العشرين نحو 50.000 نسمة ينتشرون في أرجاء السينغال و غامبيا . وقد أسس الشيخ بوكنتة في السينغال قرية حملت إسمه (كربو كنتة – دار بوكنتة) قرب مدينة تيووان وأقام هناك إلى أن توفي سنة 1914(53).

"و يذكرأن الشيخ سيدي المختار الكنتي و ابنه الشيخ سيدي محمد ، كانا يتبادلان المراسلات مع المجاهد عثمان دان فوديو مؤسس دولة سوكوتو و أبنائه بنيجيريا ، و يبديان لهما الرأي فيما يعرض من شؤون الإسلام و المسلمين.

كذلك كان الشيخ سيدي المختار على صلة طيبة بأحمد لبو مؤسس دولة ماسنا بمدينة "حمد الله" (في مالي) (54).

و إلى جانب ذلك ، فقد أخذ أحمد بمبا القادرية عن الشيخ سيديا في تندوجة ، و تلقى منه العلم هناك (55) ؛ و امتد نفوذ الشيخ سيديا إلى غاية السينغال وغينيا(56) ، و كان مندوبوه ينشطون بأماكن عديدة من غرب القارة في سان لويس ، و ديمار، و بودور، و فوتا و غيرها (57) ؛ و قد اخذ عن الشيخ سيديا عدد من أئمة (أمراء) دولة فوتا الإسلامية و خصوصا الإمام بيرام (إبراهيم) و إبنه الإمام محمد (ت1866) و إبنه ابر الماني (إبراهيم الإمام)، و اتسع نفوذ الشيخ ليشمل جميع أنحاء السينغال و غامبيا و غينيا بيساو و غينيا كوناكري (58)، كما كان نفوذ الشيخ سعدبوه يتركز أكثر في المناطق الإفريقية في السينغال و غينيا (59)، و كان له الآلاف من التلاميذ في كل من مقاطعات فوتا و الجولوف و الكايور و غامبيا والكازامانس (60).

و اتسع نفوذ الشيخ التراد بن العباس ليصل إلى مالي وكازامانس وغينيا و سيراليون ، وكان يتلقى مراسلات و مندوبين من طرف زعماء تلك المناطق ، فيتعرضون للتفتيش من قبل السلطات الإستعمارية ، و قراءة البريد الذي يحملونه(61).

وقد قام بالدور الكبير في نشر الإسلام والتعليم رجال من الأسر الكنتية والفاضلية ومن العلويين و آل الشيخ سيديا ، فضلا عن الشيخ أحمد حماه الله الذي تصدى للإستعمار ، فالتف حوله الآلاف من الأفارقة من شتى الأقطار(62) .

و قد كان لمشايخ العلويين دور في خدمة الإسلام بغرب إفريقيا مثل الشيخ محمد الحافظ ومحمدي بن سيدينا الملقب بذي ، و سيدي مولود فال و محمد المختار بن أحمد فال وأحفادهم، إذ أن أكبر الطوائف التيجانية في مطلع القرن العشرين ، أتباع الشيخ عمر الفوتي، و أتباع الحاج مالك سي، يدينون بالتلمذة لهؤلاء المشايخ ، و ذلك لأخذهم عنهم مباشرة أو عن طريق مشايخهم و آبائهم الذين تتلمذوا عندهم ؛ و هاتان الطائفتان تنتشران في السينغال و مالي و غرب إفريقيا عامة ، و كان لجدود بن محمد الكبير و محمد بن المختار ، دور هام في نشر التيجانية في إفريقيا ، خاصة السودان ونيجيريا (63).

خاتمة:

مما سبق يتضح الدور الهام الذي أدته هذه الرقعة الجغرافية من الصحراء الكبرى في سبيل نشر الإسلام و الثقافة العربية الإسلامية ككل في منطقة غرب إفريقيا و ذلك على مر القرون ، فكانت هذه البلاد تمثل الممر الرئيسي للتجار و الدعاة القادمين من الشمال باتجاه بلاد السودان كما هو معروف ، و قد أشارت المصادر العربية كما سبق و ذكرنا إلى أنه كانت هناك جهود لملوك سودانيين من أجل نشر الإسلام ببلاد السودان ، و لكن دور بلاد شنقيط بدأ يظهر جليا منذ منتصف القرن الخامس الهجري (11م) ، و ذلك من خلال جهود المرابطين الذين عملوا على تصحيح العقيدة الإسلامية لدى الشعوب السودانية ، و نشره على نطاق واسع في غرب إفريقيا استكمالا للعمل الذي بدأه التجار و الدعاة من قبلهم في إشعار

السكان بهذا الدين الجديد ، وكان لحركة المرابطين و قيام دولتهم من بعد أثر كبير في مصير الإسلام بغرب إفريقيا إذ عملت على تصحيح العقيدة الإسلامية بالمنطقة و ترسيخ الإسلام السني الصحيح و إدخال المذهب المالكي إليها الذي هو مذهب المرابطين، و لم تتوقف جهود البلاد في خدمة الإسلام بالمنطقة مع عهد المرابطين و حسب ، بل استمرت بعدها بقرون متمثلة في جهود شيوخ المحاضر الصحراوية و الطرق الصوفية الذين جالوا بأنفسهم في أدغال إفريقيا أو عن طريق مندوبيهم أو عن طريق قدوم السودانيين إلى البلاد و تلقيهم العلم بها ، فكان أن اتسعت دائرة انتشار الإسلام بغرب إفريقيا أكثر و أكثر حتى أصبح الإسلام الطرقي يطبع الإسلام الإفريقي .

الهوامش:

(1) آدرار كلمة بربرية وتعني الجبل ، البكري : **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** . مكتبة المثنى ببغداد ، د.ت ، د.ط ، ص ص 163 ،164 ، وتطلق على مجموعة من المناطق الجبلية في الصحراء منها : آدرار عاصمة توات على بعد 650 كم جنوب شرق بشار . وكذلك آدرار ايفوغاس ، وهو كتلة جبلية تقع بالصحراء الجنوبية (السودان الغربي) وتعد امتدادا لإقليم الهكار ، كما تطلق على آدرار موريتانيا الحالية ويسمى "آدرار التمر" ، أحمد مولود ولد أيده : **الصحراء الكبرى مدن وقصور** . دار المعرفة ، الجزائر ، 2009 ، ج1 ، ص109 .

(2) أحمد بن الأمين الشنقيطي : **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط** . المطبعة الجمالية بمصر، ط1 ، 1329 ، ص410 .

(3)أحمد مولود ولد أيده : المرجع السابق ، ص138 .

(4) عبد الودود ولد عبد الله(ددو) : **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثاني عشر(18م)** دار أبي رقراق ، الرباط ، 2015 ، ص32 .

(5) أحمد مولود ولد أيده : المرجع السابق ، ص138 .

(6) المرجع نفسه ، ص139 .

(7) شنجيط : وهو الإسم الأصلي قبل أن يتحول نطق الجيم إلى قاف لتصبح شنقيط . أحمد بن الأمين الشنقيطي : المصدر السابق ، ص 422 .

(8) عبد الرحمن السعدي : **تاريخ السودان**. طبعه السيد هوداس ، باريس ، 1981 ، ص22 .

(9) المختار ولد حامد : **حياة موريتانيا "الجغرافيا"** . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1414 هـ/ 1914 م ، ص9.

(10) أحمد مولود ولد أيده : المرجع السابق ، ص139.

(11) المرجع نفسه ، ص230 .

(12) المختار ولد حامد : " **الجغرافيا** ": المرجع السابق ، ص9 .

(13) أحمد مولود ولد أيده : المرجع السابق ، ص ص 230 ، 231 .

(14) المختار ولد حامد : " **الجغرافيا** " المرجع السابق ، ص8 .

(15) المرجع نفسه ، ص8 .

(16) محمد المختار ولد أباه : **الشعر و الشعراء بموريتانيا** . دار الأمان ، الرباط ، 1424هـ/2003م ، ط ، ص12.

(17) ابن عبد الحكم : **فتوح إفريقيا والأندلس** . تحقيق وتقديم : عبد الله أنيس الطباع ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ،1964 ، ص14 .

(18) ابن خلدون : **العبرو ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 1421هـ/200م ، ج4 ، ص237 .

(19) المالكي : **رياض النفوس (في طبقات علماء القيروان والأندلس و زهادهم و نساكهم و سير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم)**، تحقيق : بشير البكوش ، مراجعة : محمد العروسي المطوي ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط1: 1403 هـ / 1983 م – ط2 : 1414 هـ / 1994 م ، ج1 ، ص 39 .

(20) ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس** . دار الطباعة المدرسية بمدينة اوبسالة، 1843 م ، ص 76 .

(21) حسن أحمد محمود : **قيام دولة المرابطين (صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى)**، دار الفكر العربي ، القاهرة – مصر ، د.ت ، ص61 .

(22) ابن عذارى المراكشي : **البيان المغرب في أخبار المغرب** . تصحيح : رينارتدوزي ، مطبعة بريل بمدينة ليدن المحروسة ، 1838 ، ص ص 27 ، 28 .

(23) عصمت عبد اللطيف دندش : **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430. 515هـ – 1038. 1121 م)** ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت- لبنان ، 1408هـ / 1988م ، ط1 ، ص38 .

(24) النايي ولد الحسين **صحراء الملثمين و علاقاتها بشمال و غرب إفريقيا من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م** . تقديم : محمد حجي ، 1421هـ/2000م ، ص207 .

(25) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص ص 93 ، 94 ، ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ص 38 .

(26) النايي ولد الحسين : المرجع السابق ، ص209 .

(27) المرجع نفسه ، ص209 .

(28) وعند ابن أبي زرع تيولوثان بن تيكلان ، الأنيس المطرب : المصدر السابق ، ص76 .

(29) ابن الخطيب : **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام و ما يتعلق بذلك من الكلام** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت ، ج2 ، ص384 .

(30) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص ص 243 ،244 .

(31) المصدر نفسه ، ص244 .

(32) المصدر نفسه ، ص245 .

(33) دندش عصمت : المرجع السابق ، ص ص 111 ، 112 .

(34) الناني ولد الحسين : المرجع السابق ، ص307 .

(35) عصمت دندش : المرجع السابق ، ص 112 .

(36) مجموعة سوداء انضمت في وقت غير معروف إلى شعب مالي الطي كان تحت سيطرة إمبراطورية غانة و اندمجوا معه ، لكنهم بقوا محتفظين بهويتهم ، و قد كان الوانقارة في بداية أمرهم عبيدا لملوك غانة ، نور الدين شعباني : **محاضرات في تاريخ ممالك السودان الغربي** ، دار الجزائر ، االجزائر ، 2015 ، ص ص 22 ، 23 .

(37) عصمت دندش : المرجع السابق ، ص112 .

(38) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص87 .

(39) عصمت دندش : المرجع السابق ، ص ص 114 ، 115 .

(40) الناني ولد الحسين : المرجع السابق ، ص309 .

(41) Raymond Mauny : **Tableau Géographique de l’Ouest africain au Moyen Age** . Ifan , Dakar , 1961 , p 525.

(42) الناني ولد الحسين : المرجع السابق ، ص310 .

(43) المحضرة الصحراوية : يعرفها الخليل النحوي بأنها جامعة شعبية ، بدوية متنقلة ، تلقينية ، فردية التعليم ، طوعية الممارسة. الخليل النحوي : **بلاد شنقيط المنارة و الرباط** . المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، تونس، 1987، ص 53 .

(44) الخليل النحوي : المرجع السابق ، ص 266 .

(45) المرجع نفسه ، ص266 .

(46) (أحمد بن أمين الفراء) التندغي ، عالم في فنون شتى منها النحو و الفقه ، كانت له منزلة كبيرة عند رؤساء السودان (ت: 1323هـ) ، أحمد بن الأمين الشنقيطي : المصدر السابق ، ص 344 .

(47) أحمد بن الأمين الشنقيطي : المصدر السابق ، ص344 .

(48) ولد بن احميدة عبد الله : **الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط (مبحث في النشأة والأصول)** . تقديم: ولد حبيب الله أحمد ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ،1377 هـ/ 2009م ص 54 .

(49) المختار بن حامد :" **الحياة الثقافية** "، المرجع السابق ، ص94 .

(50) الخليل النحوي : المرجع السابق ، ص123 .

(51) المرجع نفسه ، ص 266 .

(52) المرجع نفسه ، ص 123 .

(53) المرجع نفسه ، ص267 .

(54) المرجع نفسه ، ص267 .

(55) المرجع نفسه ، ص 266.

(56) Maty (P.) : **Etudes sur l'Islam Maure (Les Brakna)** . Edition Ernest Leroux , Paris , 1921 , p 56 .

(57) Le Chatelier (A.) : **L'Islam dans l'Afrique occidentale** , Steinheil , Editeur, 1899, Paris , p 326.

(58) النحوي: المرجع السابق، ص267 .

(59) Marty(P.) :**Etudes sur l'Islam maure…**op.cit , p 162

(60) Ibid , p 168 .

(61) النحوي: المرجع السابق، ص267 .

(62) المرجع نفسه ، ص266 .

(63) المرجع نفسه ، ص268 .

مقاومة مدينة دلس للاحتلال الفرنسي (من بداية الاحتلال إلى غاية سقوط مدين)

The resistance of the city of Dellys to the French occupation From the beginning of the occupation until the rains

أ.د/ نور الدين شعباني
جامعة خميس مليانة– الجزائر
nourchabani@yahoo.fr

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/10/23	2021/11/11	2021/../..

الملخص باللغة العربية:

مدينة دلس هي من المدن الساحلية العريقة في الجزائر، عرفت عبر تاريخها الطويل الذي يمتد إلى عهد الفنيقيين العديد من الاستعمار و الاعتداءات الاجنبية خاصة من طرف الاوربيين، مثل بقية المدن الساحلية الجزائرية، ولقد كان لهذه الحملات الاستعمارية المتكررة دور كبير في بناء حضارتها ذات الطابع المتوسطي، لكنها في نفس الوقت اكتسبت خاصية المقاومة و الرفض للمحتل الأجنبي، و آخر هذه الحملات التي تعرضت إليها هذه المدينة هو الاحتلال الفرنسي سنة 1844م، حيث حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية التطرق لهذه المحطة التاريخية و ردود فعل أهل مدينة دلس و كفاحهم ودفاعهم عن مدينتهم إلى غاية سقوطها.

الكلمات المفتاحية: دلس، عمراوة، الأمير عيد القادر، أحمد طيب بن سالم.

Abstract:

Dellys is one of the ancient coast town in Algeria. Throughout its long history that extends back since the Phoenicians time, it was the target of several attacks and collonizers, especially by Europeans like others of the Algerian coastal towns. These repeated colonial campaigns played important role in its Mediterranean civilization characters , but at the same time it acquired the characteristic of resistance and rejection of the

foreign occupier, so the last of these campaigns that this city was exposed to the French occupation in 1844 AD, so i tried through this research to address this historical station and the reactions of the people of the city of Dellys and their struggle and defense of their city until its fall.

Key words : Dellys, Amraoua, El amir abdelkader, Ahmed Tayeb ben Salem

مقدمة:

تعد مدينة دلس من المدن الساحلية العريقة في الجزائر، حيث تعرضت لكل الحملات الاستعمارية التي تعرضت لها الجزائر عبر تاريخها بحكم هذا الموقع الساحلي، ولقد مكّنت هذه الحملات مدينة دلس من اكتساب عدة خصائص حضارية و ثقافية و اجتماعية، و لعل آخر هذه الحملات التي تعرضت إليها هذه المدينة هو الاحتلال الفرنسي سنة 1844م، حيث حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية التطرق لهذه المحطة التاريخية و ردود فعل أهل مدينة دلس و كفاحهم ودفاعهم عن مدينتهم إلى غاية سقوطها.

أولا: أوضاع منطقة عمراوة السفلى قبيل الاحتلال الفرنسي:

كانت مدينة دلس جزء من منطقة القبائل التي كانت تتشكل خلال الفترة العثمانية من منطقة عمراوة السفلى(التحاتة) و عمراوة العليا(الفواقة)، و نقصد بعمراوة هي المناطق بحوض سيباو الذي يمتد من دلس الى تيزي وزو إلى ذراع بن خدة هي قبيلة مخزنية أغلب سكانها عرب و أقليات تركية و أمازيغية تابعة للدولة العثمانية، وعكس باقي قبائل المخزن التي أجبرت أو خيرت بأن تنضم للدولة العثمانية فنجد أن هناك ثلاث قبائل عربية هي سويد و كرفة وعمراوة قد انضموا للدولة العثمانية برغبتهم بعد أن كثرت الحملات الاسبانية المسيحية، كما شكل علي خوجة مخزنا من قرى عمراوة و أقام برج سباو وبرج بوغني وبرج تيزي وزو. كما أقام سوقين لاحقا هما سوق الاثنين، في بغلية بالقرب من برج سباو، وسبت عمراوة، بالقرب من ذراع بين خدة[1].

كانت أرض عمراوة التابعة للبايلك تسكنها 16 زمالة من بينها هذه زمالة عبيد شملال هي الوحيدة المتكونة من الزنوج المحررين، و هذه الزمالات هي: كاف العقاب، برج السباو، تاورقة، ذراع بن خدة سيدي نعمان، ليتامى المكونة لعمراوة التحاتة، أولاد بوخالفة، تيزي وزو، عبيد شملال، تيميزار ن لغبار، سيخ أومدور، إغيل أورابح، ثالة عثمان، تيقوبعين، تامدة ومقلع مكونة لعمراوة الفواقة.

قرى كتوس، أولاد وارث، ثالة موقر، زيمولا ، بورديم و أرجاونة التي ما تزال موجودة في عمراوة لم تكن زمالات ولم تكن لديها خيول.

بقيت عمراوة السفلى وفية دائما للأتراك و كانت على الدوام سندهم القوي، أما عمراوة العليا فكانت مرة خاضعة و مرة أخرى ثائرة، باستثناء عبيد شملال التي كانت تامة الوفاء للأتراك. وعندما كان عمراوة العليا يثورون تضطر هذه الزمالة للانسحاب إلى برج تيزي وزو الذي كان يستعمل همزة وصل بين جزئي القبيلة أو ينسحبون إلى غاية برج السباو.

فعرش عمراوة شارك عرش عمراوة في معركة اسطاوالي صيف 1830 م نحن قيادة أعمر أوسعيد ناث قاسي لعمراة العليا و عمر بن محي الدين لعمراوة السفلى بإشراف الزعيم الروحي محمد أمزيان بوخالفة، بل و ذكرهم محمد الصغير فرج في كتابه تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى سنة 1954 و قد ذكر : عرش عمراوة و عددهم 11833 نسمة.

وخلال الوجود العثماني بالجزائر ثارت إمارة كوكو بزعامة بلقاضي ضد الوجود العثماني، تأسست عام1515م واستمرت إلى غاية 1638م) و بعد صراع طويل مع السلطة العثمانية ضعفت ثورة كوكو أمام دايات الجزائر، وخاصة بعدما نصب داي الجزائر قواعده العسكرية المتقدمة في كل من تيزي وزو و بوغني، كما أخذت قادة سباو تتوسع في منطقة عمراوة كل يوم[2].

ورغم الفوضى التي عرفتها منطقة جرجرة إلا أن قبائلها استمرت في التمرد لكن بدون جدوى. لكن اهم منطقة أصبحت تحت السيطرة العثمانية الفعلية كانت منطقة سباو التي تَحصَّنَت من جهة الغرب بقاعدة يسر العثمانية وهو ما دفع سكان عمراوة إلى التحصُّن

بالجبال، وتحولوا من موفق هجومي إلى موقف دفاعي، حيث تحول كل جهودهم الى حراسة دوابهم و حقولهم ليل نهار (و هي مصدر عيشهم الأساسية) من هجمات عثمانية محتملة.

ولكن في قاعدة سباو و تيزي وزو و بوغني العثمانية المدعمة من طرف قبائل المخزن العرب و البربر، و الإدارة العثمانية رغم سيطرتها على الوضع لكنها بقيت في صراع دائم مع قبائل جرجرة، مما جعلهم غير قادرين على فرض سيطرتهم الكاملة على جرجرة[3].

وقد استمر هذا الوضع لى غاية سنة 1737م بتنصيب قائد جديد على قاعدة سباو و هو محمد بن علي الملقب بالذبّاح[4]. هذا المحارب والسياسي الذي سبق له شغل منصب قائد جيش التيطري، والذي يتمتع بعدة صفات جعلته يكون الرجل المناسب لإخضاع منطقة القبائل، فهو مرتبط بعلاقة مصاهرة بعائلة آيث بوخطوش[5] المشهورة في منطقة أورير، كما انه ينحدر من سلالة ين قاضي أمير إمارة كوكو، والذي تمكّن من فرض سيطرة السلطة العثمانية على ببرج منايل وسباو وبوغني[6].

ومن أجل تدعيم سيطرتها على تلك المناطق عملت السلطات التركية على إنشاء مراكز عسكرية أخرى، كما قامت بتوسيع نفوذ وأماكن استيطان الزنوج المعروفين بعبيد شملال[7] في نهر سباو وبوغني[8] مرفوقين بشيوخ الصوفية وتحت قيادة القادة الأتراك القاطنين في برج سباو، حيث وزعوا عليهم الأراضي الخصبة وزوّدوهم بالأسلحة مقابل أن يكونوا عونا لهم في كل تعبئة[9].

لكن مع بدايات القرن 19م أخذت عمراوة تتحرر من قبضة سلطة المخزن وحلفائهم من عبيد شملال، حيث في سنة 1818م تم الاستيلاء و تخريب مركز القيادة التركية في بوغني، كما سقط المركز المتقدم للأتراك بتامدا في أيدي سكان عمراوة العليا، و بالنسبة لعمراوة السفلى التي تنتمي إليها مدينة دلس والذين يلقبون بعمراوة الغرابة أيضا عن طريق قبائل آيت جناد و آيت واغنون يقوا مستعصيين على الأتراك، و كانوا يسيطرون على كل المنطقة الممتدة من شمال برج سباو و ميناء دلس[10] .

و بهذا حافظت مدينة دلس على نوع من الهدوء وتمكنت من التصدي لعدة غارات تركية، وأهمها حملة الأغا يحي سنة 1819 و التي انتهت بهدنة بين قبائل عمراوة و الأتراك، لكنها لم تدم إلا سنة واحدة بحيث انه في سنة 1820م قام قايد برج سباو باستدعاء زعيم عمراوة العليا آيت قاسي في أمر عاجل و سري، و عند زيارة آيت قاسي لقايد برج سباو قام هذا الأخير بدعوته إلى مرافقته إلى إحدى غرف البرج، و هنا قام بتوجيه رصاصة لآيت قاسي من الخلف حيث أصابه في مؤخرة رأسه و أرداه قتيلا، بعدها قام الحراس بالقضاء على مرافقيه، مما تسبب في حالة هيجان من طرف قبائل عمراوة الذي قاموا بإحراق مركز المراقبة التركية في تامدا وطردوا القايد أوباجي منه، كما اندلعت ثورة عارمة في كل جرجرة ضد الأتراك، قبل أن يتدخل الاغا يحي من اجل تهدئة الوضع فمنح الأمان للعائلة ايت قاسي وأعطاهم دية القتل، كما الاعتراف بزعامة بلقاسم اين محمد ايت قاسي المقتول على عمراو العليا و عين قائدا على مركز تامدا سنة1823م و هو ما جعل قبائل عمراوة تستعيد قوتها و مكانته في المنطقة[11].

هذا الوضع جعل قبائل عمراوة (و خاصة قبائل ايت جناد و واغنون) العليا قوية وعدوانية من خلال غاراتهم اليومية على المراكز التركية و الحواضر المتواجدة في عمراوة السفلى، كانت مدينة دلس بحكم موقعها الساحلي تعاني من هذه الهجمات لكنها في المقابل بدأت تحظى بهدوء واستقلالية من جهة الأتراك بحكم تبعيتها لحكم عائلة بن محي الدين بتاورغة. قبل أن يخضع الداي كل منطقة القبائل في حملة 1825م[12].

وبعد سقوط مدينة الجزائر تحت ايدي الجيش الفرنسي سقطت الحكومة التركية في كامل القطر الجزائر الذي كانت متمركزة فيه، أما في منطقة القبائل فقد هرب قايد برج سباو محمد بن مصطفى، فدخلت المنطقة في مرحلة فوضى جراء غياب السلطة المركزية التي كان يمثلها الأغوات الأتراك، وقد سميت هذه الفترة من الفوضى باسم دولة الهامل، و هنا قام الحاج محمد بن زعموم بضم تحت سلطته كل القبائل الممتدة من وادي يسر إلى غاية وادي سباو. كما قام أحمد آيت يحي زعيم قبيلة واغنون بوضع قبيلة بني سْليَّم و بني ثور و تاورغة رو مدينة دلس،

كما سيطر أيضا على الجمارك الموجودة في ميناء دلس التي كانت تأخذ ضرائب من السفن التجارية القادمة إلى ميناءها[13].

ثانيا: الاحتلال الفرنسي الأول لمدينة دلس:

منذ أن حطت جيوش ديبورمون الفرنسية بسواحل سيدي فرج هب سكان مدينة دلس للذود عن حمى الوطن ضمن كتيبة القبائل التي قادها شيخ الطريقة الصوفية الرحماني بمنطقة القبائل الشيخ سيدي المهدي السكلاوي، لكن بعد سقوط مدينة الجزائر في أيدي الغزاة الفرنسيين يوم 5جويلية 1830م عاد أهل دلس إلى مدينتهم[14].

بعد فشل مقاومة متيجة بقيادة بن زعموم زعيم قبيلة فليسة الذي قبل شروط المستعمر، و في شهر ماي 1837م، كما قامت كتيبة صغيرة من الجيش الفرنسي باجتياح مدينة الثنية و تقدمت نحو مدينة يسر وكانت هذه الكتيبة تريد الانضمام إلى كتيبة أخرى بقيادة الجنرال بيريغو(Perrégaux) المتجهة نحو مدينة دلس عن طريق السفن لكن وضعية البحر الهائجة لم تسمح بنجاح هذه العملية بعد ذلك تلقت كتيبة يسر إمدادات أخرى فواصلت عملية الهجوم[15].

لقد أسفرت العملية على إخضاع قبائل يسر و دلس لكنهم لم يحتلوا مدينة دلس، فقد تم أخذ بعض نبلاء مدينة دلس كرهائن الى مدينة الجزائر وعلى رأسهم أحد كبار تجارها وهو الحاج مولود بن علال كرهينة، من أجل إجبار أهل المدينة على الخضوع للفرنسيين[16]، فتشكلت بعثة بقيادة المدعو جبروني محمد واتجهت عن طريق البحر إلى الجزائر، من اجل التفاوض مع الفرنسيين من أجل اطلاق سراح الرهائن و دفعوا أتوات مقابل ذلك، و لما عادت البعثة جلبت معها بعض الفرنسيين[17].

لكن هذا الدخول الفرنسي إلى مدينة دلس لم يكن احتلالا بالمعنى الحقيقي، ذلك أننا نعتقد أن رئيس بعثة أهل دلس محمد الجبروني كان يريد من خلال جلب الفرنسيين الى دلس

هو من اجل سلامة الحاج مولود بن علال الى جانب محاولة جلب الحماية من الهجمات التي كانت تتعرض إليها مدينتهم من طرف سكان المداشر بعدما سقطت سلطة الأتراك و لم تعوضها سلطة بدبلة فكانت تلك السنوات التي أعقبت رحيل الأتراك من برج سباو وترك المنطقة بدون حاكم فعلي مليئة بالاضطرابات و الاعتداءات على المدن و خاصة حاضرة دلس.

ثالثا: انضمام مدينة دلس لثورة الأمير عبد القادر:

استغل الأمير عبد القادر معاهدة التافنة (30 ماي 1837م) ليركز على تنظيم دولته وتوسيع نفوذه و جلب دعم الجزائريين لحركة الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي التي اعلن عنها وخاصة في منطقة القبائل.

منذ ديسمبر 1837م بدأت أخبار الأمير عبد القادر تصل إلى منطقة عمراوة و خاصة إلى زعيم عمراوة السفلى سي عمر بن محي الدين[18]، ولما وصل الأمير إلى منطقة القبائل واجتمع بزعماء القبائل عين أحمد طيب بن سالم خليفة له على كل منطقة القبائل، و تعهد له زعماء القبائل و أمناء الجماعات على الوقوف معه في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي، وطاعة خليفته أحمد طيب ين سالم بشرط عدم فرضه قوانين جديدة عليهم مغايرة للقوانين التي توارثوها وعدم دفع الضرائب و الاكتفاء بدفع الزكاة[19].

بعد هذا الاجتماع الذي انعقد في سيد علي موسى بنواحي معاتقة، قام الأمير بزيارة برج تيزي وزو، و بات الليلة هناك عند العمراوة و ألقى عليهم نفس الخطاب الذي ألقاه في سيد موسى، حيث أعلنوا له ولاءهم له.

عين الأمير عبد القادر أحمد الطيب بن سالم خليفة له على منطقة القبائل و عين الحاج عمر بن محي الدين آغا على تاورغة، و قد زود الأمير خليفته بفيلق عسكري نظامي وأرسل له ضابط برتبة أغا وحدة عسكرية و ستة ضباط برتبة سِيَّاف و122 خيمة عسكرية و600 بدلة

عسكرية كاملة مع السلاح و لم يبق لبن سالم إلّا تجنيد المحاربين فقط و التي كانت مهمة سهلة في منطقة القبائل. ثم قام بإخضاع قايد منطقة يسر مصطفى بن عمر و كلفه بجمع العشور و الزكاة بعدما كان من قبل في خدمة الفرنسيين.اتجه بعد ذلك الخليفة بن سالم إلى مدينة دلس حيث عين الحاج مولود بن علّال في منصب قايد المرسى (و هو المنصب الذي كان يشغله أصلا من قبل) [20].

رابعا: زيارة الأمير عبد القادر لمدينة دلس:

في سنة 1839 قام الأمير بزيارته الأولى لمنطقة القبائل رفقة مائة فارس، وكانت هذه الزيارة تحت رعاية عدد من أعيان المنطقة النافذين و نبلائها من أهل العلم و الجاه و الدين، وهذه المرة وصل إلى مدينة دلس التي لم يكن يعرفها من قبل، و قد رافقه فهذه الزيارة خليفته سي احمد طيب بن سالم و احد نبلاء مدينة دلس يسمى عبد الرحمان الدَّلسي و هو احد قادة احمد طيب بن سالم، و في طريقهم إلى مدينة دلس لاحظ أن هذه المدينة لا تتمتع بأي شكل من أشكال الحصانة ضد اي هجوم فرنسي محتمل[21]، فسأل الأمير عبد الرحمان الدَّلسي قائلا له:« كيف تتمكنون من التأقلم مع موقع مدينتكم الساحلي؟ لو كنت مكانكم لما مرت عليَّ ليلة واحدة دون الاحتياط خوفا من هجمات مفاجئة للنصاري الفرنسيين على المدينة». فأجابه عبد الرحمان الدَّلسي بأنه لا يقلق بخصوص هذا الأمر لأن سكان المدينة يحميهم من أي خطر أجنبي ضريحان لشيخين مرابطين من شيوخ الصوفية هما سيدي سوسان وسيدي عبد القادر، واحد يحميهم من جهة البحر و الأخر يحميهم من جهة البر. فأجابه الأمير قائلا: ... لا يجب أن نثق في النصارى، لان شباكهم منصوبة فقط من أجل الإيقاع بنا، لهذا يجب إرسال متاعكم كلها إلى الجبال ولا تتركوا في المدينة إلا عائلاتكم و خيولكم». و بعد أيام قلائل تم تنفيذ تعليمات الأمير[22].

بعد مكوثه بدلس ست ليال زار الأمير عبد القادر بعدها شيخ قرية بوربراك في منطقة أولاد سيدي عمر الشريف اين تناول غداءه ثم بات الليل في حوش النهال في منطقة يسر، أين قدم زعماء قبائل تلك المنطقة لمقابلته، حيث طلب منهم نقل كل أمتعتهم إلى أماكن عالية وعدم ترك الحبوب في لسهول، كما زار الشيخ الصوفي بومرداس في جبال يسر[23].

اتجه الأمير بعد ذلك نحو قرية سيدي نعمان عند قبائل عمراوة حيث قدم له سكان وادي نسّا هدايا قيمة متمثلة في تين مجفف، زيت، شمع و صابون، كما قدم له كل اغا من أغوات عمراوة و هما بلقاسم أوقاسي و عمر بن محي الدين بغلة رائعة[24].

خامسا: مقاومة أهل دلس للاستعمار الفرنسي تحت قيادة بن سالم:

بعد نقض فرنسا للهدنة مع الأمير أرسل الأمير رسالة لخليفته بن سالم بطلب منه الاستعداد لمواصلة الجهاد، على إثرها قام بن سالم باستدعاء القادة المنضوون تحت قيادته إلى مخيم بعيون بسام عند قبيلة عريب أين أعلن أمامهم الجهاد المقدس ضد الفرنسيين[25].

وبعد مقاومة شرسة في متيجة بين 1839 و 1844م، و خضوع بن زعموم والخليفة عمر بن محي الدين، فإن الهجوم الكبير على منطقة القبائل ومنها مدينة دلس بدأ في مطلع سنة 1844م، حيث مع الماريشال حوالي8 ألاف جندي فرنسي[26] لبداية الهجوم يوم 28افريل 1844م بقيادة المارشال بيجو، فلقد اجتاح هذا الجيش منطقة يسر دون مقاومة بعدما هجرها أهلهاو انظم الخليفة بن محي الدين الى الجيش الفرنسي و معه 400 فارس[27]، وفي الثاني من شهر ماي دخل الجيش الفرنسي برج منايل التي كان أول المدن التي ما تزال خارجة عن سيطرة الفرنسيين آنذاك، و لقد أصرَّ الماريشال بوجو على احتلال مدينة دلس وميناءها حتى جعل منها نقطة التزود بالمؤونة[28]، فرغم المشاكل التي كان يعاني منها خليفة الأمير بن سالم و تخلِّي عائلته عنه إلا أنه بقي مرابطا في جبال منطقة سباو مما أعاق بقدم قوات بيجو في المنطقة و هو ما جعل هذا الأخير يقرر شن هجوم ثان على مدينة دلس[29]،

استقر قسم من الجيش بقيادة الجنرال جنتيل (Gentil) ببرج منايل لكن الحالة المزرية للطريق الرابط بين برج منايل و دلس و سوء الأحوال الجوية و من أمطار جعل مسيرة الكتيبة الفرنسية المتوجهة نحو مدينة دلس مرهقة، حيث وجد الفرنسيون صعوبات كبيرة في قطع جبل بوبراك و وادي سباو لأول مرة، وبسبب ارتفاع منسوب مياه وادي نسًا فقد استغرقت مدة قطعه سبعة أيام، و غرق فيه ثلاث فرسان من الأهالي المتعاونين مع فرنسا، و كان وصولهم إلى مدينة دلس في الثامن من شهر ماي 1844م، حيث واجهتهم طلقات نارية من طرف جيش أهل دلس الذي كان متمركزا على مسافة بعيدة عنهم، و هنا استنجد الجنرال بيجو الجيش بدعم الجيش المتواجد ببرج منايل بقيادة الجنرال جنتيل، و انطلق نحو مواجهة جيش بن سالم الذي كان يقوده الحاج عمر بن محي الدين يوم12 ماي 1844م، و الذي كان يتشكل من حولي 8 آلاف مجاهد، الذين تصدوا للجيش الفرنسي من خلال هجمات انطلاقا من جيل بوبراك، مما جعل الجيش الفرنسي إلى سحب كتيبته نحو الضفة اليسرى لوادي نسًا قبل أن يبدأ في هجوم معاكس أحبط من خلاله هجمات جيش فرسان بن سالم الذي تراجع و تشتت [30].

اتجه فرسان جيش بن سالم نحو جبال تاورغة أين اشتبكوا مع قوات الجيش الفرنسي حيث فقط بن سالم حوالي 300 شهيد في هذه المعركة، كما تم حرق قرية تازرقة[31]. و في 16 ماي من نفس السنة وبعد ان وصلت كتيبة بيجو إلى تادمايت التقى الجمعان قرب برج سباو حيث تبادل الطرفان إطلاق النار ليوم كامل، و رغم محاولة بيجو إجراء مفاوضات لكنها فشلت خاصة بعدما تدخلت النسوة الذين شجَّعن أزواجهن بعدم الاستسلام و عدم إلقاء السلاح[32].

في يوم17ماي قام الماريشال بيجو بهجوم كبير عن طريق جيش مكون من حوالي 20 ألف جندي بعدما انظم إليه جيش زواوة بقيادة سي الجودي و جيش عمراوة، وقد دارت معارك كبيرة فقد فيها الجيش الفرنسي حوالي31 قتيل و 103 جريح، بينما كانت الخسائر في

صفوف جيش بن سالم تقدر بحوالي 600 شهيد نظرا لعدم تكافؤ القوى بين الطرفين و أما هذه الهزيمة لجأ بن سالم إلى قرية بني يحي في جبل فرعون في بجاية، و هو ما أدى إلى بداية استسلام بعض القبائل[33].

سادسا: سقوط مدينة دلس:

لو تتبعنا خطوات احتلال مدينة دلس لوجدناها سارت على النحو التالي:

دخلت قوات المارشال بيجو مدينة دلس و احتلتها دون مقاومة، يوم 07 ماي 1844م، و قد ترك بيجو في مدينة دلس بعد احتلالها 100 جندي من المشاة، 50 جندي تابع لكتيبة لحفر الخنادق و التفجيرات، 100جندي تابعين لفرقة الرماة (Tirailleurs) الأولى (وهي كتيبة مكونة من المرتزقة الأجانب اغلبهم مغاربة)، بالإضافة إلى 120 جندي *من المليشيات المحلية و هي كلها خاضعة لقيادة القبطان بيريغو(Périgot) و هو تابع بدوره لكتيبة الرماة الأولى34، قبل أن يتعرض هؤلاء المستوطنون الفرنسيون إلى هجوم من طرف قوات بن سالم في وادي سباو يوم 12 ماي 1844 عندما كانوا يعبرون واد نسَّا في طريقهم إلى برج منايل كما سبق و أن ذكرنا، حيث قامت قوات بن سالم إلى تقسيم الجيش الفرنسي إلى قسمين و تعرض الجيش الفرنسي المتمركز في الضفة اليسرى لواد نسَّا مكوَّن من كتيبة من 200جندي و بعض المتعاونين مع فرنسا من الأهالي، ودارت معركة ليوم كامل.*

كما تجددت المعارك يوم 17ماي في الضفة اليسرى لواد نسَّا عند قرية وارزدين و التي فقد فيها جيش بن سالم عدد كبير من الشهداء، بينما فقد الجيش الفرنسي 30 قتيل و 100 جريح كما ذكرنا سابقا، وكان من بين الجرحي القائد الفرنسي فالونتان الذي تم دفنه في احد البساتين قري باب اوستليتز (Austerlitz) بمدينة دلس، و في 12 ماي استسلمت قبيلة فليسة للقوات الفرنسية و تسلم زعيمها بن زعموم برنوس الولاء و التنصيب[35].

بعد الاستسلام طلبت قبائل فليسة من المارشال بيجو أن يعفيهم من الضريبة بحجة أنهم لم يدفعوها من قبل لا للعثمانيين ولا للأمير عبد القادر، لكن بيجو أجابهم بان فرنسا أقوى من داي الجزائر و من الأمير و لا يمكن مقارنتها بهم[36].

بعد هزيمة جيش بن سالم مع الفرنسيين، بقيت قبائل عمراوة الفواقة(العليا) بزعامة بلقاسم أوقاسي غير خاضعة للفرنسيين و لكن في صيف 1844 حدث خلاف بين أوقاسي و شيخ قبائل عبيد شملال الحاج حمدان بن قُلِّي الذي أبدى رغبته في خضوع عبيد شملال للفرنسيين مما أدى إلى تفرقهم و عداوة بينهما، كما تعرضت قافلة بن سالم إلى النهب من طرف بعض القبائل الخاضعة للفرنسيين، لهذا ففي 21 سبتمبر 1844م استغل بن سالم و الحاج حمدان بن قلي فرصة حضور زعماء القبائل الخاضعة إلى حفلا نظمته السلطات العسكرية الفرنسية في العاصمة لشن هجوم على مدينة دلس في محاولة لاسترجاعها، فتجمعوا في سيدي نعمان برفقة 2000 من جنود المشاة و 200 فارس، و لما حاولوا السير إلى مدينة دلس وجدوا معارضة من طرف القبائل الذين رؤوا أن الأولوية هي الإغارة على القبائل الخاضعة للفرنسيين، وبعد جدال كبير مع هذه القبائل انصرف عدد كبير من الجنود لصالح هذا الطرح ولم يبق أما بن سالم و بلقاسم أوقاسي إلا حوالي200 من المشاة و 200 من الفرسان، و هو الأمر الذي جعل مهمتهم صعبة[37].

لما سمع بيجو بهذا الأمر أرسل فرق عسكرية أخرى إلى دلس التي نزلت بها بين يومي 23 و 27 سبتمبر و شكلوا فرقة استكشافية صغيرة تحت إمرة الجنرال كومان (Comman)، كما تم تدعيمهم بفرقة من الأهالي الخاضعين المقدر عددهم بـ 500 فارس و يقودهم ثلاث أغوات، بعده خرجت هذه الفرقة العسكرية من دلس وقطعت واد سباو من جديد، و اتجهت إلى غاية تامدا بمنطقة القبائل، و قد قامت هذه الفرقة بعمليات نهب وسلب واسعة بعدما انسحبت قوات بلقاسم أوقاسي و نهبوا ممتلكاته[38].

سابعا: استسلام الخليفة بن سالم:

في نهاية سنة 1849م تم تنصيب القائد دوكرو(Ducrot) في منصب جديد بمنطقة عمال، و بمجرد وصوله فكر بضرورة الدخول في علاقة مع الخليفة بن سالم معتمدا على اشتياق بن سالم لابنه الشاب الذي أخذه الفرنسيون أسيرا و منحوه تعليما فرنسيا في فرنسا، حيث قام القائد دوكرو بإرسال ابن الخليفة بن سالم لزيارة والده برفقة عدد منن الخدم، و بعدد عدة أيام

عاد الشاب ابن الخليفة بن سالم إلى عمال حاملا معه رسالة من أبيه إلى القائد دوكرو يعبر له فيها بن سالم عن امتنانه واعترافه بجميله، فاتجه القائد دوكرو إلى الجزائر لمقابلة المارشال بيجو، قام هذا الأخير قام بتكليف القائد دوكرو بمقابلة الخليفة بن سالم الذي قبل الأمر. بعدها لبس القائد دوكرو لباسا عربيا و رافقه رجلان عربيان و قطعا منطقة القبائل بمن اجل ملاقاة بن سالمن و في يوم 6 جانفي 1849م تم اللقاء بين الرجلين في عمال، وكان اللقاء طويلا انتهى بإقناع بن سالم بالاستسلام، و أن يكون ذلك في مدينة الجزائر، حيث جاء على لسان بن سالم ما يلي: « أوافق على حكم الحاكم العام الفرنسي لأن هذه القوة جاءت من عند الله، و فرنسا قوية بتسخير رجال مثلك»[39].

قدم المارشال بيجو يوم 26 جانفي إلى عمال حيث تم تقديم بن سالم له رفقة كبار زعماء سباو، و في يوم 8 أفريل توجه بن سالم إلى الجزائر مصحوبا بالقائد دوكرو، و لقد أمر المارشال بيجو بأن يخصص له استقبالا استثنائيا[40]. بعد استسلامه اختار بن سالم الهجرة نحو بلاد الشام و قد رافقه في هذه الرحلة شيخ الطريقة الصوفية الرحمانية في منطقة القبائل المهدي السكلاوي، حيث ركبا على متن سفينة انطلاقا من ميناء دلس نحو بلاد الشام.

خاتمة:

خلاصة البحث أن مدينة دلس التابعة خلال العهد العثماني لدار السلطان، إداريا و جغرافيا إلى عمراوة السفلى، قد حظيت لفترة طويلة بالهدوء وتمكنت من التصدي لعدة غارات تركية، وأهمها حملة الأغا يحي سنة 1819 و التي انتهت بهدنة بين قبائل عمراوة و الأتراك، وحتى لما خضعت منطقة القبائل للأتراك بقيت هذه المدينة الساحلية تنعم بالهدوء، و هذا بسبب موقعها الساحلي و مينائها الذي جعل منها منطقة تجارية بالدرجة الأولى، لكن هذا الهدوء قابله استماتة كبيرة في الدفاع عن المدينة من طرف أهلها حتى ولو أنهم لم يكونوا أهل حرب، فقد فشلت الحملة الفرنسية الأولى على مدينة دلس سنة 1837م، و لم يتم احتلاها في الحملة الثانية سنة 1844م، إلا بعدما استنفذ أهلها كل سبل المقاومة إلى جاني خليفة الأمير عبد القادر لأحمد طيب بن سالم.

الهوامش:

---

[1] M.Daumas, La grand Kabylie, Etudes historiques, Edits Hachette, Paris, 1847, p103
[2] Ageron (Charles-Robert) , La politique kabyle sous le Second Empire. In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 53, n°190-191, premier et deuxième trimestres 1966. pp. 67-105; doi : https://doi.org/10.3406/outre.1966.1416
https://www.persee.fr/doc/outre_0300-9513_1966_num_53_190_1416
[3] Boulifa (Si Ammar), Le Djurdjura a travers l'histoire, depuis l'antiquité jusqu'au1830, Alger, 1925, p 245.
[4] حول هذه الشخصية **انظر**: Guin(Interprète Militaire, Notes sur Le Bey Mohamed dit Le Bey Debbah,In *Revue Africaine*, Volume07, P293.
[5] تنسب هذه العائلة إلى لزعيم مقاومة منطقة بوغني ضد الأتراك سيد علي بوختوش الذي قاوم الوجود العثماني وقاوم القائد علي خوجة العثماني لما قام ببناء برج سياو سنة 1720م و برج أخر في وادي بوغني سنة 1724م لكنه انهزم في منطقة ذراع بن خدة بعد ذلك.
[6] Boulifa (Si Ammar), Le Djurdjura a travers l'histoire, OP.Cit, p246.
[7] هي عبارة عن مستوطنات زنجية تمركزت في هضبة تيزي وزو الحالية، عند التقاء نهري واد عيسي الحالية وسباو، و ذلك بغرض استغلال الأراضي الخصبة في زراعة الحبوب و الخضر و الفواكه، وذلك في الوقت الذي تم إنشاء المركز العسكري الجديد في تيزي وزو في سنة 1640م و الذي تحول إلى مركز قيادة من الدرجة الأولى، كان في الأول خاضع لعائلة آيت ختوش قبل أن يتحول فيما بعد إلى أيدي عائلة آيت قاسي.
[8] Boulifa, Le, OP.Cit, p247.
[9] Gavoy, Émile, Notice sur Tizi-Ouzou : historique, climatologie, constitution médicale, imprimmerie de V. Aillaud (Alger), 1878, p21.
[10] Boulifa, Le, OP.Cit, p301.
[11] Ibid, p311.
[12] Ibid, p326.
[13] Robin(N), Note historique sur la grande Kabylie(1830-1838), In :Revue Africaine, N°115, Janvier –Fevrier 1876, Alger, Pp83-84.
[14] E. Pellissier, Annales Algériennes, Paris, 1836, P80
[15] M.A.Vispecq, Dellys Petite monographie locale, edits Chaix fils, Alger, S D, P30.
[16] Robin(Colonel), Notes historiques sur la grande Kabylie, de1338-1851, in : Revue Africaine, année1902, vol :46, A.Jordan laibrairie-editeur, Alger1902, p49.
[17] Ibid, p22.

[18] Robin(Colonel), Notes historiques, Op.Cit, p44.
[19] M.Daumas, La grand Kabylie, Etudes historiques, Edits Hachette, Paris, 1847 , Pp193-194.
[20] Robin(Colonel), Notes historiques, Op.Cit, Pp48-49.
[21] DR. MOHAMED SALEM ,L'Emir Abdelkader en Kabylie (1838-1839), IN : *HTTPS://WWW.ELWATAN.COM/ARCHIVES/HISTOIRE-ARCHIVES/LEMIR-ABDELKADER-EN-KABYLIE-1838-1839-23-07-2009*, 23 JUILLET 2009 .
[22] Roben, Op.Cit, p198.
[23] Roben, Op.Cit, p199.
[24] M.Daumas, Op.Cit, p 201.
[25] Ibid,p216.
[26] بينما يحددها بليسيي (E. Pellissier) بسبعة آلاف جندي انظر:
E. Pellissier de Reynaud, Annales Algériennes, PARIS, Librairie militaire, Octobre 1854, Tome3, P108.
[27] Ibid, p108
[28] Daumas, Op.Cit, p317.
[29] E. Pellissier , Annales Algériennes, Op.Cit, P108.
[30] Ibid, Pp108-109.
[31] Daumas, Op.Cit, p320.
[32] Ibid, p325.
[33] E. Pellissier , Op.Cit, P.111
[34] Vispecq, Dellys Petite monographie locale, Op.Cit, p24.
[35] Pellissier , Annales Algériennes, Op.Cit, P.111
[36] Général Denop, Lettres sur l'Algérie, 1907-1908, Librairie Plon, Paris, 1908, P274.
[37] Robin, Notes historiques sur la Grande Kabylie de 1838 au 1851, in : *Revue Africaine*, Volume47, année 1903, A. Jourdan librairie éditeur, Alger, 1903, Pp62-63.
[38] Ibid , p65.
[39] Edmon Biré, Mémoires et souvenirs, Victor Retaux Librairie - editeurs, Paris, 1898, P328
[40] Ibid, p328.

قائمة المصادر والمراجع:

1. Ageron (Charles-Robert) , La politique kabyle sous le Second Empire. In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 53, n°190-191, premier et deuxième trimestres 1966. pp. 67-105; doi :

https://doi.org/10.3406/outre.1966.1416
https://www.persee.fr/doc/outre_0300-9513_1966_num_53_190_1416

2. Boulifa (Si Ammar), Le Djurdjura a travers l'histoire, depuis l'antiquité jusqu'au1830, Alger, 1925.
3. Daumas(M), La grand Kabylie, Etudes historiques, Edits Hachette, Paris, 1847.
4. Edmon Biré, Mémoires et souvenirs, Victor Retaux Librairie - editeurs, Paris, 1898.
5. Robin, Notes historiques sur la Grande Kabylie de 1838 au 1851, in : Revue Africaine, Volume47, année 1903, A. Jourdan librairie éditeur, Alger, 1903.
6. Général Denop, Lettres sur l'Algérie, 1907-1908, Librairie Plon, Paris, 1908.
7. Gavoy, Émile, Notice sur Tizi-Ouzou : historique, climatologie, constitution médicale, imprimmerie de V. Aillaud (Alger), 1878.
8. Guin(Interprète Militaire, Notes sur Le Bey Mohamed dit Le Bey Debbah,In Revue Africaine, Volume07, P293.
9. MOHAMED SALEM ,L'Emir Abdelkader en Kabylie (1838-1839), IN : HTTPS://WWW.ELWATAN.COM/ARCHIVES/HISTOIRE-ARCHIVES/LEMIR-ABDELKADER-EN-KABYLIE-1838-1839-23-07-2009, 23 JUILLET 2009
10. Pellissier (E) de Reynaud, Annales Algériennes, PARIS, Librairie militaire, Octobre 1854, Tome3.
11. Pellissier (E), Annales Algériennes, Paris, 1836.
12. Robin(Colonel), Notes historiques sur la grande Kabylie, de1338-1851, in : Revue Africaine, année1902, vol :46, A.Jordan laibrairie-editeur, Alger1902.
13. Robin(N), Note historique sur la grande Kabylie(1830-1838), In :Revue Africaine, N°115, Janvier –Fevrier 1876, Alger.

14. Vispecq (M.A), Dellys Petite monographie locale, edits Chaix fils, Alger, S D.

الحركة الإصلاحية والجهادية لمحمد عبد الله حسن في بلاد الصومال (1900– 1920م).

The reformist and jihadist movement of Muhammad Abdullah Hassan in Somalia (1900-1920)

د/ يوسف سليماني
جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة– الجزائر
Slimaniyou2@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/10/19	2021/11/07	2021/../..

الملخص:

تعتبر الحركة الجهادية لمحمد عبد الله حسن في بلاد الصومال من أقوى الحركات، وأطولها على الاطلاق في شرق إفريقيا عموما؛ بل وفي إفريقيا كلها حيث بقيت مستمرة لأزيد من عشرين سنة ضد قوات الاحتلال البريطاني والإيطالي بحيث أخلطت له كل أوراقه في شرق إفريقيا.

وكانت بداية حركته عن طريق الوعظ والإرشاد وحثّ الناس على الجهاد ومقاومة الغزاة الأوربيين المغتصبين لأراضيهم وحرماتهم، ثم كوّن فرقة عسكرية بدأت تكبر شيئا فشيئا، وبدأت في حركتها الجهادية عام 1900 لتستمر 20 سنة أُطلق عليها لقب حركة الدراويش ألحقت في البداية خسائر كبيرة جدا بالقوات البريطانية، وعندما عجز البريطانيون في القضاء على حركته استعانوا بالإيطاليين الذين كانت لهم اطماع هم كذلك في المنطقة، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سخروا القوات الجوية والبرية والبحرية للقضاء عليه ولم يكن لهم ذلك إلا في عام 1920.

وبذلك يعتبر محمد عبد الله حسن رمزا للجهاد والكفاح ضد الاستعمار الأجنبي، وهو من أرسى قواعد الكفاح في الصومال ليستمر بعده النضال ضد المستعمر في شكل انتفاضات وحركة وطنية وأحزاب سياسية حتى تحقيق الاستقلال.

الكلمات المفتاحية: محمد عبد الله حسن، الجهاد، الصومال، الوعظ والإرشاد.

Abstract:

The jihadist movement of Muhammad Abdullah Hassan in Somalia is considered one of the most powerful and longest-running movements in East Africa in general. Rather, in all of Africa, where it remained persistent for more than twenty years against the British and Italian occupation forces, as all his cards in East Africa were mixed for him. The beginning of his movement was through preaching and guidance and urging people to jihad and resisting the European invaders usurping their lands and sanctities. And when the British were unable to eliminate his movement, they sought help from the Italians, who also had ambitions in the region, and after the end of the First World War they harnessed the air, land and sea forces to eliminate him, and they did not do so until 1920. Thus, Muhammad Abdullah Hassan is considered a symbol of jihad and the struggle against foreign colonialism

Key words: Muhammad Abdullah Hassan, Jihad, Somalia, Preaching and Guidance.

مقدمة:

تعتبر حركة الجهاد والمقاومة من أبرز ما ميز المشهد السياسي والعسكري الإفريقي عقب امضاء وثيقة برلين لعام 1884- 1885، حيث شهدت معظم الدول الإفريقية قيام حركات مقاومة دفاعا عن أوطانهم وممتلكاتهم وكرامتهم، تباينت تلك المقاومات بين النجاح والفشل، بين قصر مدتها وطولها، واختلفت أيضا في دوافعها ومحفزاتها، فمنها من حركتها النزعة الدينية الإسلامية كثورة محمد عبد الله حسن في بلاد الصومال، ورابح بن فضل الله في التشاد، ومنها

النزعة الدينية التقليدية مثل الماجي ماجي في تنجانيقا، وثورة نانايا أسانتيوا في الأشانتي، ومنها من حركها الجانب الاجتماعي مثل ثورة ضريبة الأكواخ في سيراليون.

وتعتبر مقاومة محمد عبد الله حسن في بلاد الصومال من أبرز المقاومات التي وقفت في وجه ثلاث قوى عسكرية عظمى البريطانية، الإيطالية والحبشية، ولمدة زمنية تعدت عشرين سنة، ألحق بهم السيد محمد عبد الله حسن عدة هزائم؛ إلا أن اضطرت تلك القوى إلى استخدام القوات البرية والبحرية والجوية للقضاء عليه، ولم يمنع كل ذلك أن يمارس الشيخ محمد عبد الله شعائره الدينية وتبليغ رسالته الروحية التي اعتمدت على مبادئ الطريقة الصوفية الصالحية التي اكتسبت في وقت وجيز قرابة المليون من الأتباع والمريدين في كافة ربوع الصومال، وعليه من هو محمد عبد الله حسن؟، وكيف كان أسلوبه في الدفاع عن وطنه إلى غاية عام 1920؟.

1– . نشأة السيد محمد عبد الله حسن:

كانت الطرق الصوفية أواخر القرن التاسع عشر قد استقرت في بلاد الصومال، وكانت الطريقة القادرية هي أكثر الطرق شيوعا وانتشارا بين سكان الصومال حتى عام 1880، وتركزت الطريقة في كل من بربرة في الشمال، ومنطقة هود في الأوجادين، وكان يتزعمها الشيخ عبد الرحمن الزيلعي (المتوفى عام 1882)، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت المنافسة من طرق صوفية أخرى مثل الندرواتية والاحمدية والرفاعية وأخيرا الطريقة الصالحية التي صارت تنافس الطريقة القادرية.

وكان السيد محمد عبد الله حسن زعيم الجهاد الصومالي، وبطل المقاومة الصومالية ضد القوى الأجنبية من أبرز خلفاء شيخ الطريقة الصالحية الذي كان يُدعى محمد بن الصالح[1].

ولد الزعيم محمد عبد الله حسن في 17 أفريل عام 1864 بالقرب من بوهوتلي في شمال الصومال[2]، وكان جده الشيخ حسن نور من قبيلة الأوجادين[3] قد استقر هناك، وتزوج من احدى بنات قبائل الدولباهنت وهي العشيرة المحلية في بوهول، ولم يعرف إلا القليل عن والد

السيد محمد عبد الله حسن، لكنه كان مهتما بتعليم ابنه، وكان ينتمي إلى فرع بهجري من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية.

أرسله والده إلى مدارس القرآن الكريم، ومنذ طفولته كان يهوى قيادة الأطفال في ساحة الألعاب الرياضية، ودخل احدى المدارس الإسلامية في الأوجادين للتزود بالعلوم الشرعية، وما إن انتهى من حفظ القرآن حتى شارك أستاذه في تحفيظ الطلاب لهذا الكتاب الكريم، وبدأت مرحلة جديدة من حياته استهلها بالاتصال بالعلماء والشيوخ المحليين بقصد التزود بالمعارف الإسلامية والعلوم الشرعية والأدبية[4].

استطاع محمد عبد الله حسن بذكائه وسرعة استجابته أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة بين أهل الفقه والدين الذين أخذوا برأيه، ولمسوا فيه التقوى والصلاح، وكان عليه مثل غيره من شباب الصومال لأن يبحث عن مهنة يمارس فيها نشاطه، ووجد في الصيد والفروسية والملاحة خير من يساعده على صقل قواه البدنية وتدريبه على مواجهة الكوارث والأزمات والإصرار على تخطي العقبات والمشكلات .

وقبل أن يكمل العقد الثاني من عمره كان رصيده من علوم الدين يؤهله لحمل لقب (شيخ)، وهو اللقب الذي أعطاه حق ممارسة إلقاء الدروس الدينية في المساجد، حيث بدأ ينتقل من مركز اسلامي إلى آخر في كل من هرر ومقديشو ونيروبي وغيرها، فالتقى بالعلماء وخالط رجال الدين، وهذا ما ساعده على صقل مواهبه، وما إن حصل على هذه الجرعة من خلال الزيارات المستمرة حتى احس بضرورة الاستقرار فعاد إلى بلاده، حيث تزوج وهو في سن الخامسة والعشرين، وبدأ يكسب لقمة العيش من خلال ممارسة إلقاء الدروس في المساجد.

قَدِمت إليه وفود الطلاب والمريدين الذين وجدوا فيه العالم المثقف الذي يساعدهم على فهم علوم الدين، فأنسوا به ووقفوا معه وكانوا نواة جنوده المخلصين.

وفي عام 1885 قرر السيد محمد عبد الله حسن التوجه إلى الجزيرة العربية لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وصحبه في هذه ما لا يقل عن ثلاثة عشر رجلا من

المخلصين لدعوته، ومن خيرة أصدقائه، وأتاحت له فرصة الحج التعرف على عدد كبير من الفقهاء والمشايخ، حيث قابل الشيخ محمد الصالح الرشيدي، وانضم إلى طريقته الجديدة، وصار خليفته[5].

وفي الحجاز وقف السيد محمد عبد الله حسن على حال المسلمين، ومحاولات الشعوب الأوروبية تقطيع أوصال الأمة الإسلامية، كما وقف على جهود رجال البعثات التبشيرية التي تسعى إلى نشر الديانة المسيحية في بلاد عرفت الإسلام منذ زمن طويل، كما أتاحت له فرصة الحج معرفة أخبار الثورة العرابية في مصر، وثورة محمد أحمد المهدي في السودان، وكيف توحدت أهداف الثورتين من أجل استخلاص الوطن إلى أبنائه من حكم الدول الاستعمارية التي راحت تبسط سيطرتها هنا وهناك في ديار الإسلام والمسلمين[6].

لقد كانت كل هذه العوامل سببا في ازدياد روحه الثورية، وسعيه لشن حرب جهاد ضد قوى الاستعمار الأوروبي التي بدأت هي الأخرى بالسيطرة على أرض الصومال، بالإضافة إلى هدفه الأكبر في نشر الدين الإسلامي بين الشعوب التي عرفت الإسلام اسميا، ناهيك عن مقاومة النفوذ الحبشي الذي يطمع في السيطرة والتسلط على بلاده، وباختصار كانت رحلة الحج بمثابة مرحلة الاعداد لهذه المهمة الكبرى، وتلك الأهداف الكبيرة والنبيلة.

وفي عام 1895 قرر العودة إلى بلاده عن طريق عدن[7]، وكانت بريطانيا قد أصبحت صاحبة السيطرة على موانئ بربرة وبلهار وزيلع إثر انسحاب القوات المصرية منها، وعندما هبط أرض عدن أحس بمرارة العداوة للمسيحيين، وما إن التقى بأحد البريطانيين حتى طلب منه هذا الرجل مشاهدة المظلة التي يحملها في يده، ورفض السيد محمد عبد الله الاستجابة لهذا الأجنبي، وذهب بعيدا عنه؛ لكن البريطاني تبعه وحاول أن يريه المظلة بالقوة فما كان من محمد إلا أن دفعه بيده فسقط هذا الرجل في مياه البحر، وتجمع البريطانيون وكلهم دهشة من هذا الرجل الذي يتجرأ على ضرب أحد الأوربيين، ولولا تدخل رجال الشرطة في عدن لدخل السيد محمد عبد الله حسن السجن هناك[8].

ومنذ هذه الحادثة أدرك السيد أن التفاهم مع الأجانب أمر صعب، وأن التعامل معهم يكون أشد صعوبة وقسوة، فازداد حقدا وكراهية لهم، واستقل الباخرة المتجهة إلى بربرة وقلبه مليء بالمرارة والأسى فوصلها في الثاني من أغسطس 1895، حيث لقي معاملة قاسية من رجال الجمارك الذين طلبوا منه رسوما جمركية على أمتعته، فكان جوابه ومن الذي أعطاكم تصريحا بالدخول بلادنا.

واستقر الشيخ في ميناء بربرة كخليفة للشيخ عمد صالح صاحب الطريقة الصالحية، حيث قام بنشر تعاليم الطريقة، وتعليم الأهالي أصول العبادة، وانتقل من مكان إلى آخر يخطب في الناس، ويقدم لهم النصح والإرشاد؛ بل أقام مسجدا ليكون له مقرا ومستقرا للقاء الأتباع والمريدين، وكان لجهوده المخلصة الفضل الأكبر في نشر الطريقة الصالحية التي ازداد أتباعها يوما بعد يوم حتى صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى في بلاد الصومال، وبدأ السيد محمد عبد الله حسن يحث الناس على الجهاد في سبيل الله ضد الاوربيين الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين.

وذات يوم التقى بمحض الصدفة بمجموعة من الأطفال الصغار وهم في طريقهم إلى مدارس البعثة الكاثوليكية الرومانية في بربرة، وكانت هذه البعثة قد اتخذت لها مقرا في بربرة منذ عام 1891، وبدأت تجمع الأطفال اليتامى، وتقوم بتعليمهم مبادئ المسيحية، ولما التقى بهم السيد محمد عبد الله وعرف حقيقتهم، وأن البعثة تقوم بتغيير أسمائهم إلى أسماء مسيحية، ارتعدت فرائصه وقام على الفور بإرسال شكوى إلى المقيم السياسي البريطاني في بربرة يطالب فيها بإبعاد المسيحيين والمبشرين عن أرض الصومال الإسلامية، وكان مرسومه الذي أصدره في عام 1904 خير دليل على هذا الإحساس بالخطر، حيث أعلن السيد محمد عبد الله في هذا المرسوم:

"حاربوا الوثنيين بالسيف، والمنافقين باللسان، ولكن نظرا لأن بلادنا في هذه الأيام قد دخلت حوزة الوثنيين الذين أخذوا أموالنا ونقلوا عنا أخبارنا، فإن حرب الوثنيين والمنافقين يجب أن يكون بحد السيف".[9]

واستطرد السيد محمد عبد الله يحذر قومه مطالبا بعدم طاعة المسيحيين، كما طالب بعدم تعليم الاطفال اللغات الأوربية، وأنه لابد من تلقينهم مبادئ الدين الإسلامي، وحفظ القرآن الكريم والعلوم الشرعية، وبدأ السيد يرسم سياسته على أساس ضرورة جمع كلمة الشعب الصومالي وتوحيد الصفوف لمواجهة العدو المشترك تحت زعامة دينية واحدة، ومنذ ذلك الوقت دخل السيد في طور جديد من حياته استهله بجمع كلمة الصوماليين على رأي واحد وتحت قيادة موحدة[10].

بدأ السيد محمد عبد الله حملة ضد الأعمال المنافية للشريعة الإسلامية فطالب بإلغاء استيراد الخمور إلى بلاده، كما طالب بعدم إرسال الأطفال إلى المدارس المسيحية، وجاءت حادثة عارضة لتزيد من اشتعال الموقف الذي أوشك على الانفجار، الك هي حادثة القس الذي كان يقطن بجوار أحد المساجد في بربرة، وكان الأذان يؤرق مضجعه، فقام بإطلاق النار على المؤذن، فاشعل بذلك نار الحقد عند المسلمين، وبدأت طلائع الجيش الثوري ضد الأوربيين، وظهرت حركة مقاومة رجال التبشير والمبشرين، وقام المسلمون بهدم المركز التبشيري في 'ديمول' DIMOL ولاحقوا القسيس في محاولة الفتك به، وتحطيم كل المراكز التبشيرية، وكان حادث القسيس قد ترك أثرا عميقا في نفوس الناس، وفي نفس السيد محمد عبد الله الذي أدرك أنه لابد من الصراع معهم، وإنقاذ ديار المسلمين من تسلط الكفار والوثنيين.

ولما ازداد الموقف اشتعالا اضطرت الحكومة البريطانية إلى طرد المبشرين، وفعلا قامت بترحيلهم على ظهر باخرة إلى عدن، وتعهدت هذه السلطات البريطانية بعدم السماح لهم بالعودة إلى الصومال، ومنع بناء الكنائس في البلاد، وعدم فتح محلات لبيع الخمور.

وجاءت حادثة أخرى جعلت السيد محمد عبد الله حسن يعلن الجهاد ذلك أنه في 19 مارس 1899 هرب أحد رجال الشرطة، ويدعى 'هيرس' من بربرة إلى السيد محمد حاملا مسدسه، ولم يعرف السيد ما إذا كان الجندي قد اشتراه أم لا، وما إن سمع القنصل البريطاني في بربرة بتلك الحادثة حتى أرسل إلى السيد محمد عبد الله حسن يطلب منه إعادة

المسدس، فكان رد السيد محمد عبد الله: "أيها الرجل إنني لم أسرق منك شيئا خذ ما تريد من الذي سرقك، وأعبد أي إله اخترته لعبادتك، والسلام.

وفي أول ديسمبر 1899 تلقى القنصل البريطاني في الساحل رسالة من السيد محمد عبد الله يتهم فيها البريطانيين بالإساءة إلى الإسلام، ويحتقر كل من يتعاون مع الإدارة البريطانية، وطلب من الإنجليز دفع الجزية إذا رغبوا في السلام، وكان رد القنصل على هذا الخطاب بأن السيد محمد عبد الله من الثوار، وحث حكومته على اعداد حملة كبيرة ضد الدراويش.

خرج السيد محمد عبد الله من بربرة واتجه إلى نوجال حيث قام بشراء عدد من البنادق الفرنسية، واستقر به المقام في مسقط رأسه حيث أقام مسجدا وبدأ يعلم الطريقة الصالحية، ولكن في مارس عام 1900 حضر بعض من الجنود الأحباش من هرر بقصد جمع الضرائب من السكان الصوماليين في منطقة أوجادين، فما كان من أتباع السيد محمد عبد الله إلا أن شنوا هجوما عنيفا عليهم وعلى المعسكر الحبشي في جكجكة واستولوا على عدد كبير من الأسلاب، ولقد اختلفت تقديرات هذا الهجوم على جكجكة حيث وصف قائد الجيش ويدعى جيرازماتشي بابي هذه المعركة فيقول:

" في الساعة الثامنة وصلت قوات العدو أمام القلعة، وكانوا كثيري العدد ولم تستمر المعركة أكثر من خمس دقائق قبل هروبهم وخلفهم جنودنا الذين دمروهم"

وكانت هذه الواقعة بداية تحالف بين الإمبراطور الإثيوبي منيلك والبريطانيين من أجل ضرب تلك الحركة الناشئة قبل أن يستفحل أمرها بزعامة الشيخ الصومالي .

كان هذا التحالف بداية مرحلة جديدة من الصراع بين السيد محمد عبد الله والقوى الأوربية، واعتبر الشيخ تحالف الأحباش مع العناصر الأوربية بمثابة إعلان الحرب على المسلمين، وبالتالي أحس السيد أن الوقت قد حان لإعلان الجهاد المقدس، وفي خطاب عام طالب السيد

محمد بحمل السلاح والإيمان بالله عز وجل، والصبر على الشدائد، وتدريب النفس على الجهاد في سبيل الله والدين والعقيدة.

ومن هنا تبدأ حركة جهاد السيد محمد عبد الله ضد القوى الأوربية، وهكذا صار السيد قائدا سياسيا وزعيما دينيا في منطقة الأوجادين، واستطاع أن يخضع القبائل المجاورة لزعماته، وأدركت سلطات المحمية أنه لابد من اتخاذ إجراء حاسم وسريع ضد هذا المجاهد لأنه لو استمر على هذا المنوال فإن القبائل الموالية للبريطانيين ستضطر في النهاية إلى الاتفاق معه أو الموت جوعا بسبب الحصار، كل هذا جعل العمل المشترك بين الامبراطور الحبشي والكولونيل البريطاني (سواين) أمرا محتما.

2– . المؤثرات الفكرية للسيد محمد عبد الله حسن:

من أهم الأشياء التي أثرت على فكر السيد محمد عبد الله حسن هو تنشئته الدينية القوية وانتماؤه إلى تلك الطريقة الصالحية الأحمدية التي تحمل بعض الميول السلفية الحنبلية مثلها مثل السنوسية لمعارضتها بشدة فكرة زيارة القبور على أمل الحصول على الوساطة والبركات.

بالإضافة إلى رحلاته المتعددة التي شملت شرق إفريقيا والسودان وبلاد الحجاز، حيث فتح عينه على حركات المقاومة التي تشكلت في أطراف العالم الإسلامي والتعرف على بعض قادتها كحركة المهدي في السودان، وحركة أحمد عرابي في مصر[11].

ومن أهم المؤثرات هو تغلغل الاستعمار البريطاني في الصومال منذ جوان 1884 ، وما صارت تمارسه من ممارسات استفزازية تمثلت في نشر المسيحية داخل الأراضي الصومالية

موقف الطريقة الصالحية من الطرق الصوفية الأخرى:

أعترت الطريقة الصالحية لدى العديد من المؤرخين أنها طريقة متشددة تجاه الطرق الأخرى، وهذا لما وجهه السيد محمد عبد الله من انتقادات للطرق الصوفية الأخرى، ويقول المؤرخ

البريطاني 'لويس أ' أنّ أهم المؤثرات التي زادت من انتقاد الصالحية للطرق الأخرى هو تأثير الوهابية في الصومال القادم من شبه الجزيرة العربية.

ووصل النزاع إلى أشده بين الطريقة الصالحية والقادرية، حيث اتهمت الصالحية أتباع القادرية بالموالاة للمستعمر بينما رفضت القادرية نهج محمد عبد الله حسن الذي يعتمد على المقاومة واللجوء إلى السلاح في وجه المستعمر[12]، وتطور الصراع بين الطرفين إلى صراع دموي، حيث اغتالت فرقة من الدراويش السيخ أويس القادري عام 1919، ثم انتقلت النزاعات إلى ساحة النشاط العلمي، والتأليف حيث ألف الشيخ عبد الله يوسف القطبي مجموعة من الرسائل وعددها خمسة منها رسالة "السكين الذابحة على الكلاب النابحة' و'نصر المؤمنين على أهل الردة والملحدين'.

ولم يشهد السيد محمد أن منهجه التربوي كان خاليا من عناصر التربية الصوفية، وأنه لم يؤسس زوايا للسماع أو بنى مشهدا أو عمر ضريحا أو شدّ الرحال إلى واحد منها، ومن أهم ما ألفه السيد محمد عبد الله حسن هو كتابه "قمع المعاندين"، و"منظومة التوحيد"، كما كان يستشهد في كثير من رسائله بأقوال ابن تيمية.

صراع السيد محمد عبد الله ضد البريطانيين:

بات واضحا أن الصدام بين البريطانيين والاحباش من جهة، وقوات السيد محمد عبد الله حسن من جهة أخرى قد صار أمرا محتما، ولذا فإن بريطانيا أعلنت عن إرسال الحملات العسكرية ضد القوى الإسلامية، وأسندت القيادة إلى الكولونيل (سواين)، كما جهزت الحبشة جيشا ضخما بلغ عدده حوالي خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابري، وكلفت الحكومة البريطانية السيد (همفري تراس) التابع لفرقة فرسان الحرس الملكي بالتنسيق بين قوات الطرفين[13].

وكانت المهمة التي كلفت بها الحبشية هي قطع خطوط الإمدادات عن الدراويش إذا حاولوا الاتصال بالقوات الصومالية الأخرى في أراضي جوبا، أو عندما يقدم شعب الأوجادين

المساعدات لهم، كما تم تكليف إيطاليا[14] بالضغط على سلطان ميجرتين لمنع وصول أي مساعدات للسيد محمد، وأيضا لمنعه من الهروب إلى الساحل، وبالتالي التضييق عليه من كل جانب.

لكن السيد محمد عبد الله تفطن لكل تلك المخططات وقام بتوزيع قواته[15] في كل الأنحاء خصوصا في الجهة الشرقية واستقر هو في منطقة بوهوتلي على حدود المحمية البريطانية وذلك في أوائل عام 1900، وبعد ذلك بدأت الاشتباكات بين الطرفين وأظهر المسلمون شجاعة نادرة ورغبة صادقة في الاستشهاد في سبيل الله والوطن، فلقد واصل المجاهدون الحرب على مدى ثلاثة أشهر؛ مما أجبر قوى البغي والعدوان على العودة إلى قواعدها بعد أن تعلمت دروسا كبيرة في النضال والكفاح والصمود[16].

واكتفت الحكومة البريطانية بعد انسحابها بعد انسحابها بوضع فرقة عسكرية في برعو، حدث كل هذا في الوقت الذي كان فيه السيد محمد يدعم قواته واحتل بعض المواقع المتقدمة، وهو الأمر الذي جعل الحكومة البريطانية تفكر في إرسال حملة ثانية ضد المجاهدين الصوماليين.

كلفت الحكومة البريطانية القائد (سواين) بقيادة الحملة واتصلت بالكابتين (كوردو) القائم بأعمال القنصل العام لإعلامه بالحملة الجديدة التي توه ضد السيد محمد لما سببه من ازعاج للسلطات البريطانية، وتحرك 'سواين' في 26 مايو 1902 ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الإفريقية بقيادة (أسبورين) مع عدد من الصوماليين يقدر بحوالي خمسمائة فارس بقيادة موسى فارح من هود.

أما قوات المجاهدين فقد تمركزت في إقليم بارن، وتقدر بحوالي ثلاثة ألاف مقاتل، واتجهت هذه القوة قبل الاشتباكات نحو الجنوب، ووصل 'سواين' إلى بوهوتلي، واقام بعض الحصون هناك لحماية آبار المياه ومخازن التموين، واستقر أخيرا في أريجو شمال منطقة مدق Mudug.

وفي 20 جويلية عام 1902 بدأت القوات البريطانية هجوما على جيروى بهدف تطهير ساحل الصومال من الدراويش، ومع نهاية أغسطس وصلت القوات البريطانية إلى جاعولو Gaolo.

وفي ذات الوقت كانت قوات الدراويش قد اشتبكت مع قوات السلطان علي يوسف سلطان هوبيا، ونجحت قوات الدراويش في إيقاع الهزيمة بقوات السلطان، واضطر سواين إلى مساندة هذا السلطان، فطلب امدادات جديدة، وقام بالهجوم على قوات الدراويش في أريجو في السادس من أكتوبر، وفقد الدراويش عددا من رجالهم لكنهم كبدوا البريطانيين خسائر فادحة، وأمكن قتل ما لا يقل عن مائة جندي من البريطانيين بالإضافة إلى ما حصلوا عليه من أسلاب وأمتعة[17].

وبعد هذه المعركة اقتنع السيد عبد الله بضرورة التحول من استخدام الأسلحة الحديثة، وضرورة تدريب قواته على النظم الحربية الحديثة حتى يواجه الموقف الجديد، ولذا فقد فضل الانتقال بقواته إلى جالادي على الحدود الإيطالية، كما قرر الدخول في حلف مع السلطان محمد عثمان سلطان ميتيجري، وقدم إليه السيد محمد عبد الله بعض الاقتراحات بشأن الحصول على الأسلحة من الساحل، وقد انتهز السيد محمد هذه الفرصة بعد رحيل القوات البريطانية، وبدأ يعيد تنظيم قواته وتزويدها بأحدث الأسلحة استعدادا لمرحلة قادمة مع قوات بريطانيا التي تنوي القضاء على هذا الثائر المسلم رغم فشلها في المحاولتين السابقتين.

ونتيجة فشل الحملتين السابقتين فقد رأت بريطانيا أن تستعين بإيطاليا للقيام بعمل مشترك ضد السيد محمد، ودارت مباحثات بين الطرفين أسفرت عن تبادل مذكرات رسمية بينهما، ووافقت الحكومة الإيطالية على قيام قوات بريطانية من ميناء هوبيا، كما طالبت بريطانيا الحبشة مرة ثانية بقطع الطريق أمام زعيم الجهاد إذا انسحب غربا، كما طالبت بريطانيا أحد رجالها بإجراء الاتصالات المناسبة لاشتراك الحبشة بشكل مباشر في هذه الحملة، وقد أسفرت هذه الجهود عن موافقة الامبراطور منيلك على الاشتراك بخمسة آلاف مقاتل تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة، وكانت الخطة البريطانية تهدف في المقام الأول إلى احتلال واحة

مدق التي خرجت منها غزوات السيد محمد عبد الله ضد المحمية البريطانية، وأن يحتل جيش الأحباش وادي نوج فافان لكي يقطع على المجاهدين احتمالات الانسحاب إلى المحمية الإيطالية.

بدأت الاشتباكات بين الطرفين بعد وصول القوات البريطانية إلى جاعولو في 15 مارس 1903، لكن المجاهد الصومالي انسحب من الموقع واتجه إلى والوال حيث دارت معركة جمبورو هل Gumburu Hill في 17 أفريل وتمكنت قوات المجاهدين من إنزال الهزائم بالقوات البريطانية، كما قتلت قائد هذه القوة، وبلغت خسائر البريطانيين حوالي 29 جريحا[18].

وحدث لقاء أخر بين الدراويش والقوة البريطانية في 'درتولة' ومع القوات الحبشية بورهيلي وأجبرتها على العودة إلى هرر، وهكذا استطاعت قوات الدراويش أن تمنع الاتصال ين قوات المتحالفين من هوبيا وبربرة والحبشة، وبالتالي باءت الحملة الثالثة بالفشل، ولم تستطع تحقيق هدفها في القضاء على الزعيم المسلم أو أسره، لقد كان هدف هذه الحملة الثالثة هو وضع شيخ المجاهدين في الهواء المكشوف حيث لا توجد مياه في تلك المنطقة الحارة، لكنهم فشلوا في الإيقاع بقوات الجهاد وكان الانهزام حليفهم واضطرت القوة البريطانية إلى الانسحاب في النهاية إلى الصومال البريطاني.

وأمام هذا الفشل الذريع في القضاء على قوات الجهاد الإسلامي قررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال 'إيجرتون' مع دعمه بقوات اضافية من المستعمرات البريطانية، وذلك على أمل القضاء النهائي على قوات الزعيم الصومالي.

حدث هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه الروح المعنوية لدى المجاهدين، وتحولت من موقف المدافع إلى الهجوم، وكتب السيد محمد عبد الله خطابا إلاي الشعب البريطاني تضمن رغبته في حكم بلاده وحماية دينه، وأكد انه يحارب من أجل العقيدة وأن الله يحارب إلى جانبه، وأنهى خطابه بأنهم إذا رغبوا في الحرب فهو سعيد بهذا، وإذا أرادوا السلام فهو أيضا سعيد، وطالبهم (إذا أرادوا السلام بأن يخرجوا من البلاد)[19].

ورغم عروض السلام التي أبداها زعيم الجهاد الإسلامي في الصومال إلا أن الحكومة البريطانية رأت ألا ترضخ لهذه المطالب، ,انها لا بد أن تلقن هذا الثائر درسا قد يكلفه حياته كلها، ولذا فإنه في 27 جويلية 1903 أبحر الجنرال ايجرتون من بومباي ليتولى قيادة الحملة الرابعة اليت هدفها الأساسي أسر الزعيم المسلم أو قتله والقضاء على قواته، وغسل عار هزيمة القوات البريطانية في حملاتها الثلاث السابقة.

وضع هذا القائد خطة استفاد فيها من الحملات السابقة للقضاء على محمد عبد الله تتلخص في احتلال آبار المياه مع قطع كل طرق المواصلات، واحتلال إقليم مدق، وطلبت أيضا من الإمبراطور منيلك المشاركة في هذه الحملة، وتعهدت بدفع مبلغ خمسة عشر ألف من الجنيهات الإسترلينية لكي يتمكن من نقل قواته في تلك المناطق الوعرة، وقد وعد الامبراطور بإرسال جيش من 4000 جندي مسلح بقيادة فيتوراري جابري[20].

وفي 19 ديسمبر 1903 بدأت الاشتباكات مع قوات الدراويش في جدبالة، وبعد معركة دامت ثلاث ساعات انسحب القائد البريطاني 'كينا' إلى بدوين وفي أول جانفي 1904 تجمعت قوات كل من مانجو فاسكن وايجرتون في شمال بدوين واتجهت هذه القوات جميعا إلى جدبالة حيث بدأت مهاجمة القوات الوطنية الصومالية واستمرت تلك المعركة يوما كاملا تعرض فيه الدراويش لهزيمة قاسية حيث قتل منهم ما لا يقل عن ألف شخص، كما فقدت بريطانيا عددا من قواتها، وهذه أول معركة تنتصر فيها بريطانيا على قوات الدراويش.

وبعد هذه المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على السيد محمد التنازل له عن أجزاء من المحميتين البريطانية والإيطالية والاعتراف به كرئيس إقليمي مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وعلى أن يودع مبلغا من المال لدى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيره وسلوكه في المستقبل، ولكن السيد محمد عبد الله رفض أن يسلم أحد أبنائه كرهينة أو نزع سلاح أتباعه.

وعلى إثر ذلك اتجه السيد محمد عبد الله إلى الساحل حيث منطقة أليجالأن البحر سيكون أمامه ويمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، وحيث توجد المياه العذبة من خلفه، واستقر السيد محمد في هذه المنطقة، وبدأ يقيم الحصون والقلاع لحماية قواته ودوابه من الهجوم سواء من الداخل أو من ناحية البحر.

وبمجرد أن علم إيجرتون القائد البريطاني بالتحصينات التي يقيمها السيد محمد عبد الله في أليج حتى قرر تحطيمها بحملة عسكرية، ولهذا الغرض تحرك الأسطول البريطاني أمام مياه أليج، ونزلت قوة بريطانية في مياه الميناء في 31 مارس 190 بعد الاتفاق مع الحكومة الإيطالية.

ولما شعر السيد محمد عبد الله بهذه الاستعدادات بدأ يتجه بقواته نحو قلعة جاريسا Garesa، وفي 21 أفريل 1904 قرر إيجرتون ضرب القلعة، ودافع الدراويش بكل بسالة وإقدام، وبعد معارك دامية سقط هذا الحصن في أيدي البريطانيين ورُفع العلمان البريطاني والإيطالي عليه، ورغم ذلك انتهت الحملة دون أن تحقق أهدافها شأن الحملات السابقة، وتكبد البريطانيون الخسائر التي بلغت حوالي 8 ضباط قتلى، وعشرين من صف الضباط الوطنيين و16 صوماليا غير نظامي، أما خسائر الدراويش فكانت أكبر من الحملات السابقة نتيجة تحالف الإيطاليين مع البريطانيين.

وعلى إثر هذه الحملة وهزيمة السيد محمد عبد الله قبل هذه الأخير الرغبة في السلام وقبول وساطة إيطاليا لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش، وهو ما أطلق عليه اتفاق 'بستالوزا' وذلك في عام 1905.

مفاوضات السلام مع السيد محمد عبد الله حسن:

باءت جميع المحاولات البريطانية ضد زعيم المجاهدين في الصومال بالفشل على طول الحملات المستمرة رغم الاستعانة بالقوات المحلية والقوى الداخلية ممثلة في قوى الأحباش وحليفتها إيطاليا، ومن جهته الزعيم محمد عبد الله كان في حاجة إلى فترة من الوقت يسترد فيها أنفاسه

ويعيد فيها بناء قوته، ما إن تدخلت إيطاليا لعقد سلام بين الطربين المتحاربين حتى أعلن السيد محمد عبد الله رغبته في عقد الصلح واستجابت الحكومة البريطانية لهذا المسعى الإيطالي.

ولعل السؤال المطروح هنا هو لماذا سعت إيطاليا إلى لعب دور الوسيط بين الطرفين وهي طرف في هذا الصراع وحليف للبريطانيين، ويمكن أن نحدد أهداف إيطاليا من وراء هذا المسعى إلى ما يلي:

-. احساس إيطاليا بعجز البريطانيين عن قمع حركة الجهاد بعد ازدياد نفوذ السيد محمد عبد الله وتجمع القبائل الصومالية خلفه، وهو ما قد يجعل لإيطاليا الهدف الثاني للسيد محمد عبد الله لأن أيديولوجيتها في المنطقة كانت السيطرة على جزء كبير من الصومال.

- لاحظت إيطاليا خلال حملات البريطانيين ضد السيد محمد عبد الله أن مناطق نفوذها قد صارت مسرحا لبعض العمليات العسكرية بين قوات الطرفين، وأن قوات المجاهدين تقوم بعمليات عسكرية في مناطق المحمية الإيطالية، وبالتالي وقوفها عاجزة عن حماية مناطقها.

إدراك الإيطاليين أن بريطانيا ربما تفكر في الانسحاب إلى الساحل تاركة الداخل لجهود المناضلين المسلمين وبالتالي تصبح إيطاليا هدفا أمام قوات الدراويش.

-. محاولة إيطاليا الاستفادة من جهود هذا الزعيم واستخدامه كوسيلة لإخضاع سلطنتي هوبيا وميجرتين اللتين تقعان في مناطق نفوذها.

وعلى إثر ذلك أرسل السيد محمد عبد الله أحد أنصاره ويدعى عبد الله شجاري إلى ممثل إيطاليا في إيريتريا لمعرفة أهداف الصلح وامكاناته، وبعد اللقاء مع الإيطاليين علم مندوب السيد محمد عبد الله أن الاتفاق يمكن أن يكون عاما، وشاملا لكل من الإيطاليين والأحباش والبريطانيين .

وأرسلت إيطاليا قائد السفينة الحربية السينور 'بلاتي بيبري' لإجراء المباحثات التمهيدية، وأرسل هذا السينور خطابا إلى زعيم الجهاد أعلن فيه رغبة الدول الثلاث في عقد

هدنة عامة بعد إيقاف القتال على كافة الجبهات، ولما وجدت الحكومة الإيطالية استجابة من شيخ الدراويش لعقد الصلح قامت بتعيين جوليو بستالوزا رئيسا لوفد المفاوضات بعد أن أخذت رأي الحكومة البريطانية التي وافقت على إجراء الصلح بشرط تتضمن :

-. عدت تدخل السيد محمد عبد الله حسن في شؤون القبائل الصومالية التي تحت الحماية البريطانية.

- عدم شراء الدراويش السلاح أو تقوية الجيش.

- تحديد أماكن الدراويش في نطاق إقليم معين.

- أن يرفع الحصار المفروض على السيد محمد عبد الله ويسمح له باستيراد كل شيء ما عدا السلاح.

ولما أحست إيطاليا أن هذه الشروط يمكن أن تعرقل المباحثات اتفقت مع بريطانيا على أساس التفاوض نيابة عنها في هذا المجال، وعلى هذا الأساس سافر بستالوزا لمقابلة محمد عبد الله في أليج ووصل بستالوزا إلى بندر قاسم وأرسل لقائد الدراويش رسالة في 12 سبتمبر عام 1904 أخبره فيها بأنه رسول الحكومة الإيطالية المكلف بإجراء الصلح معه، وطلب منه شروطه للصلح حتى يتسنى عرضها على حكومته[21].

ورد السيد محمد عبد الله مبديا رغبته في الصلح، وأظهر حسن الاستعداد الترحيب به وبمن يرغب من البريطانيين في تقديم مقترحات الصلح، ومن جهته حدد السيد محمد عبد الله مجموعة من المطالب تمثلتفي:

-. أن تحدد له إقامة دائمة في منطقة النفوذ الإيطالي بين رأس جاراد ورأس جابي.

- أن يتولى حكم أتباعه بنفسه

- حرية التجارة مع شعوب المنطقة والساحل باستثناء تجارة السلاح .

- أن يتمتع هو وأتباعه بالحرية الدينية.

وقام السيد بستالوزا بعرض هذه المقترحات على الأطراف المعنية وعلى سلطان هوبيا، وسلطان ميجرتين وحكومة لندن التي اتصلت بدورها بالكولونيل سواين للقاء بستالوزا في عدن ، وتم اللقاء في 14 و 15 من نوفمبر عام 1904 حيث وافقت بريطانيا على شروط السيد محمد عبد الله في 5 مارس عام 1905 لتوقيع الاتفاق الذي نص على ما يلي:

-. عقد صلح وسلام بين السيد محمد عبد الله وحكومات كل من إيطاليا وانجلترا، والحبشة.

- أن يكون مقر السيد محمد عبد الله في الإقليم الإيطالي في نوجال وفي البقعة بين سلطنتي هوبيا وميجرتين، كما ترسو سفنه على الساحل بين رأس جاراد ورأس جابي

- أن يتولى السيد محمد عبد الله حكم أتباعه وله حرية التجارة الكاملة ما عدا الاتجار بالسلاح أو الرقيق.

- تنازل الدراويش لسلطان هوبيا عن جميع أراضي مدق وجالكعيو

- إبلاغ الدراويش للحكومة الإيطالية بكل الأمور التي تعرض أمنهم للخطر.

- تشكيل لجنة لتنفيذ بنود هذا الاتفاق من جميع الأطراف المشتركة في المعاهدة[22].

وبهذا الاتفاق الذي وافقت عليه بريطانيا في 26 مايو 1905 تبدأ مرحلة جديدة من كفاح المسلمين ضد هذه القوى، خصوصا وأن الاوربيين قد وقعوا المعاهدة الثلاثية بين إيطاليا وفرنسا وانجلترا في ديسمبر عام 1906 لنحديد مناطق نفوذ كل منهم بعد رحيل الامبراطور منيلك.

وهكذا قبل السيد محمد عبد الله أن يظل في سلام مع إيطاليا وبريطانيا والحبشة، وأن يقبل الحماية الإيطالية لأنه استقر في المنطقة بين سلطنة الميجرتين وهوبيا في الجنوب، ومما لاشك فيه أن السيد محمد عبد الله حسن قد استفاد من هذا الاتفاق فائدة جمة حيث كان السيد في أمس الحاجة إلى فترة من الراحة ليستعيد فيها أنفاسه ويستعيد بناء قوته.

وعلى الجانب الآخر كانت بريطانيا تحاول الحفاظ على الاتفاق وشروطه، لكنها دأبت على تكوين الميليشيات العسكرية والقبلية من أجل الوقيعة بين الصوماليين فيما بينهم، ولما أحس السيد محمد عبد الله بتلك الممارسات التي تدعو للتفرقة والقطيعة بين الشعب الصومالي اتصل بالسيد كوردو مساعد القنصل البريطاني في عدن وأخبره برغبته في استمرار السلام، كما حذره من أن البريطانيين يحرضون القبائل الموالية لهم على الاعتداء على الدراويش، بالإضافة إلى محاولات تشويه العلاقات بين الإيطاليين والأحباش وبين الدراويش.

ولما عجزت الزعمات المحلية الصومالية عن إقناع السيد محمد عبد الله بعد الاستمرار في التعايش السلمي مع القوى الأوروبية قررت مغادرته والانتقال إلى الداخل، وعندئذ بدأ التغير في موقف السيد محمد حيث أرسل خطابا شديد اللهجة إلى كوردو يطالبه بإعادة تجارة الدراويش، وإطلاق حرية رجاله ونسائهم الذين لا يزالون تحت حصار الإنجليز في عدن وبربرة.

وبدأت العلاقات تدخل في طور جيد خصوصا وأن النزاع قد دب بين السيد محمد وسلطات هوبيا وانتهزت بريطانيا الفرصة وراحت تدعم مواقعها الأمامية في شرق المحمية خوفا من اعتداء الدراويش عليها، ومن هنا بدأت بريطانيا تدرس الموقف من جديد، ولم يكن أمامها إلا أحد الأمرين: إما إعادة تنظيم الحملات المسلحة ضد السيد محمد، وإما الانسحاب الكامل من الداخل وترك المنطقة له.

ولضرب مكانة الشيخ محمد والتقليل من قيمته بين اتباعه لجأت الحكومة البريطانية إلى الحيل الخبيثة، حيث اتصلت بشيخ الطريقة الصالحية في الحجاز عن طريق القنصل الإيطالي في عدن وتشكل وفد من بعض زعماء الصومال، وذهب الوفد إلى مكة في جويلية 1908 وتقدم بشكوى إلى شيخ الطريقة الصالحية اتهم فيها السيد محمد عبد الله بالقيام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية، فأرسل الشيخ محمد الصالح خطابا إلى السيد محمد عبد الله وانتهز الإنجليز الفرصة وقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين، فكانت الرسالة ذات أثر سيء على الدراويش لأنها زعزعت الثقة غي هذا الزعيم المسلم الذي كان عليه أن يواجه هذه الحملة المسعورة ضده، ومع ذلك ترك هذا الخطاب الأثر العميق في نفوس أتباعه

حيث حدث الانقسام بين القيادة الرئيسية لحركة الجهاد، واشتدت العداوة في معسكر المجاهدين، وقد نظم بعض الدراويش اجتماعا سريا لم يحضره السيد محمد عبد الله تحت شجرة ضخمة، وقرر المجتمعون اتخاذ بعض الاجراءات، ومنها: إما إعدام السيد محمد عبد الله وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد، وإما عزله لفشله في مقاومة الاستعمار، وإما حل حركة الدراويش وانهاء الجهاد[23].

وهكذا نجحت بريطانيا في فترة الهدوء النسبي بين الطرفين في أن تجند القبائل، وأن تحدث خلخلة في نفوس المجاهدين، وأن تفرق بين جماعات الموحدين باستخدام أسوأ أساليب التآمر والخيانة.

المرحلة الأخيرة من الصراع مع القوى الأوروبية:

انتهزت بريطانيا فرصة الخلافات والانشقاقات التي حدثت في صفوف قواه وزعامات السيد محمد عبد الله، وبدأت تراقب الموقف عن كثب، ووجدت أن السيد محمد عبد الله تحدوه الرغبة في عقد اتفاق سلام جديد مع بريطانيا بدلا من اتفاق بستالوزا الذي فقد روحه ونصه، فشجعت هذه الفرصة بعد وصول خطاب من السيد محمد بهذا الخصوص، وقامت على الفور بتكليف السيد ريجلاند وينجت بالسفر إلى الخرطوم في أواخر عام 1909، وأرسل هذا الأخير رسالة إلى السيد محمد شرح فيها رغبة بريطانيا في عقد صلح جديد معه، كما طلب منه إرسال وفد للتفاوض، وجاء رد السيد محمد مفيدا: القبض أولا على الصوماليين الذين شوهو العلاقات بينه وبينهم، وأن ترد بريطانيا السفن التي استولت عليها مع إيطاليا عام 1908، وأن تدفع له تعويضا عن رجاله الذين استشهدوا في نوجال بالإضافة إلى تسليم عدوه الشيخ عبد الله شجاري[24].

وتعثرت المباحثات بسبب عدم الرد البريطاني على هذه المطالب، أحس وينجت بفشل مهمته فعاد إلى بلاده وكتب تقريرا سريا شرح فيه سوء نية السيد محمد، وبناء على هذا التقرير كان قرار الحكومة البريطانية إخلاء الصومال من الغدارة وتركيز سلطاتهم في المدن

الساحلية الثلاث بربرة وبلهار، وزيلع مع إشراف القبائل الصومالية الموالية لهم على الداخل بعد تدعيمها بالسلاح والعتاد، وكان قرار الإخلاء هذا قد أحدث هذا الأمر تصاعدا داخل البرلمان البريطاني الذي عارض هذه الفكرة من اساسها[25].

وترتب على سياسة الإخلاء هذه أن اندفع الدراويش نحو أعوان البريطانيين من الصوماليين، وفتكوا بهم ونكلوا بأجسادهم وعمت الفوضى وارتبكت الطرق التجارية مع الداخل وتدمرت طرق القوافل، وعمت الحرب الأهلية في ربوع الصومال، وانتقل السيد محمد من مناطق المحمية الإيطالية إلى مناطق النفوذ البريطاني خصوصا في منطقة دوبلهانت، وبدأ في بناء عدد من الحصون والقلاع وتكوين قوة عسكرية أكثر تدريب وتنظيم[26].

وجراء ذلك اضطرت الحكومة البريطانية إلى تغيير القيادة في الصومال، حيث حل الجنرال 'بيات' محل 'ماننج' عام 1911، وعلى الفور أعد هذا الأخير تقريرا إلى الحكومة البريطانية يقضي بضرورة تكوين من الشرطة تكون مهمتها المحافظة على النظام في الإقليم، وقبلت الحكومة البريطانية هذا الاقتراح، وتشكلت بالفعل القوة الجديدة بقيادة ريتشارد كورفيلد .

وفي هذا الوقت بالذات انتهزت إيطاليا الفرصة وأرسلت قوة عسكرية بقيادة مارتيني ليتولى القيادة العسكرية ويضيق الخناق على الدراويش في الجنوب خصوصا عند مركا كما طلبت من زعامة ميجرتين التعاون معها لضرب الدراويش، وتمت بالفعل المعركة؛ لكن النصر كان حليف قوات محمد عبد الله في 15 أوت 1911 في موقعة هبرهنيل[27].

وعلى الرغم من الهزيمة التي تلقاها الإيطاليون إلا أنهم استمروا في ملاحقة الدراويش حيث قاموا بتحريض القبائل ضدهم، لكن السيد محمد كان قد ثبت نفسه جيدا في مركزه الجديد في حصن تاليح، وبدأ يعرض على البريطانيين استعداده لعقد الصلح، لكن كورفيلد أفسد هذه المخططات عندما سمع بقدوم قوات الدراويش لاحتلال المواقعبين أودين وبرعو،

فأرسل إليه خطابا وصفه بأنه رجل مجنون وطالبه بالعودة قبل أن تقع المصيبة ويندم على أعماله السيئة.

وكان رد السيد عنيفا حيث تضمن عدم الاستسلام رغم كل الظروف، وأنه لن يكون عبدا للشرك، وأعتبر كورفيلد هذا الرد بمثابة إهانة شخصية له، وطلب من قواته في كل مكان القيام بهجوم شامل على المراكز التي يسيطر عليها الدراويش، وقرر تولي العمليات العسكرية بنفسه ليضع فيها نهاية للسيد محمد عبد الله في مدينة تاليح.

وفي 19 أوت 1913 استعجل كورفيلد اللقاء مع الدراويش والتقى الجيشان في معركة لم تشهدها المنطقة من قبل حيث سالت الدماء أنهارا وأظهر الدراويش ولحمة بطولية من القتال ضد القوى الأوروبية، وفي ست ساعات كان الدراويش قد أطبقوا على القوات البريطانية وقضوا عليها قضاء كاد يكون تاما، كما قتل القائد كورفيلد، ونشرت الصحف البريطانية في لندن أخبار المعارك تحت اسم "كارثة مروعة لقواتنا في الصومال"[28].

كانت لهزيمة القوات البريطانية بداية مرحلة من الانتشار والتوسع لقوات المجاهدين، حيث استولوا على برعو في 5 سبتمبر 1913، وفي 14 يناير 1914 وجه قائد الجهاد خطابا إلى البريطانيين حذرهم فيه من العواقب إذا ما أقدموا على أي عمل لا يوافق عليه، وفي الوقت نفسه وجه قوة من الدراويش إلى بربرة نجحت في الاستيلاء عليها في 13 مارس وانتاب حاكمها البريطاني موجة من الذعر والقلق، وخشي من سقوط المدينة كلها بأيدي الدراويش، حينها أرسلت بريطانيا قوة نجحت في التغلب على الدراويش، لكنها لم تحقق النصر الكامل بسبب اندلا ع الحرب العالمية الأولى، وانشغال بريطانيا في أوروبا.

وخلال الحرب العالمية الأولى كانت التوسعات كلها لصالح السيد محمد عبد الله واستيلائه على العديد من المراكز بسبب انشغال بريطانيا في الحرب العالمية ضد ألمانيا والأتراك، ورغم ذلك لم تفرط بريطانيا في حصونا الساحلية حيث أرسلت قوة عسكرية من الهند للحفاظ

على موانئ الصومال في بربرة لاسيما قرى ومدن برعو وهرجسية، حيث دارت مذبحة مروعة قتل فيها أكثر من 170 من قوات الدراويش[29].

نهاية حركة المقاومة الصومالية:

بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها واطمأن البريطانيون إلى تحقيق النصر على أعدائهم، كان قرار الحكومة البريطانية وضع حد نهائي لذلك الثائر المسلم الذي صمد كثيرا وحقق انتصارات عديدة على البريطانيين، وكبدهم من الخسائر ما لا تطيق الخزانة البريطانية تحمله، فكان القرار وضع النهاية لهذا المجاهد بأي وسيلة، وبأي تكلفة حتى تستطيع بريطانيا أن تنفذ سياساتها في القرن الإفريقي بعد الحرب، وحت تستعيد كرامتها التي دنسها هذا المجاهد المسلم.

قامت الحكومة البريطانية بتكليف الجنرال 'هوسكنز' بالتوجه إلى بربرة لوضع تقرير عن الموقف العسكري، كما وافقت الحكومة على خطة الهجوم، وعلى أساس تدخل القوات الجوية لأول مرة مع القوات البرية والبحرية ، وأن تشترك الفرقة الجوية المعروفة باسم وحدة زد (z) بقيادة الكابتن غوردون، وذلك بهدف قصف مواقع الدراويش وتهديدهم وتشتيتهم والقضاء على حركته التي سببت الكثير من المتاعب[30].

وقبل أن تبدأ المعركة عمليات المعركة الأخيرة طالبت الحكومة البريطانية من ممثلها في بربرة ويدعى آرثر ضرورة التنسيق مع الحكومة الإيطالية في مقديشو ومع الزعماء الموالين لهم حتى تكون الخطة كاملة ومحكمة.

وفي 21 جانفي 1920 بدأت الطائرات الحربية بقصف مواقع الدراويش في مديشي، وقد انفجرت احدى القنايل في خيمة السيد محمد عبد الله نفسه انتهت باستشهاد عمه الشيخ حسن نور وبعض زعماء الحركة، لكن السيد محمد ترك هذا المكان واعتصم في احدى الخنادق على بعد 20 كلم في الشمال الغربي من مديشي، ومن هذا المكان أعلن الحرب فورا بعد ان وضع خطة للرد على تدخل الطيران في المعارك، واستمر القصف الجوي لمدة ثلاثة أيام

بالإضافة إلى المدفعية التي أحرقت قلاع الدراويش في مديشي، وأدت هذه العمليات الحربية إلى تفكك القيادة الإسلامية، ودب الرعب في نفوس الناس من جراء هذا القصف الوحشي[31].

وأمام هذا الضغط المكثف جوا وبحرا قرر السيد محمد عبد الله الانسحاب إلى تاليح؛ لكن عندما علم الانجليز بانتقاله إلى هناك أمطروه بوابل من النيران وقاذفات الطئرات التي كبدت الدراويش خسائر فادحة، ومات عدد كبير من قوات المجاهدين.

وفي 4 من فيفري بدأت ثلاث طائرات حربية من قاعدة 'عفاروين' هجومها الشامل على قلعة تاليح، واستطاعت هذه الطائرات وهي تحلق على ارتفاع منخفض أن تحرق كل أماكن استحكامات الدراويش، ولم يجد السيد محمد سبيلا سوى المغادرة نحو بلاد الأوجادين رفقة ستين رجلا من أتباعه، حيث استقر بهم المقام في منطقة باخيري التي تقع بين الوالوال ونهر شبيلي.

وسقطت أسرة السيد محمد عبد الله في الأسر ومعها بعض زوجاته وبناته وبعض رجال الحركة، واندفع البريطانيون خلف السيد محمد على امل القبض عليه ولكن باءت محاولتهم بالفشل، وهكذا انتهت الحملة الخامسة دون أن يتحقق الهدف في القضاء عليه.

ورغم ضياع المال والارض والاهل والعشيرة إلا أن السيد محمد عبد الله لم يتخلى عن جهاده وعن صراعه ضد قوى البغي حتى النهاية، ومن هذا المنطلق واصل السيد محمد عبد الله تحركاته حتى استقر اخيرا في 'جوار هي' وهناك انضم إليه من بقي على قيد الحياة من المخلصين حتى بلغ عددهم أكثر من ألف مقاتل، ومعهم بعض الأسلحة الحديثة، وبدأت الاستعدادات لخوض غمار معركة جديدة.

ومن جهتها بريطانيا خشيت من استفحال هذا أمر السيد محمد فقامت بمبادرة أعلنت فيها عن رغبتها في إنهاء الحرب إذا قبل شروطها، ونجح الحاكم آرثر في إرسال خطاب إليه في أواخر مارس 1920، ومما جاء في الخطاب أن السيد محمد عبد الله إذا استسلم خلال أربعين يوما فإنه يمنح الأمان وسوف يسمح له بالعيش في مكان آمن حسب طريقته الخاصة.

وتضمن رد السيد محمد أنه على البريطانيين تفنيد كل إدعاءات البريطانيين على الدراويش وطلب فيه تطبيق العدالة في هذه القضية، وأنه يرغب في استرداد كامل حقوقه، ومن جهته الحاكم البريطاني أرثر قدم له بعض شروط الصلح ومنها:

–. أن يحدد له مكان في الجانب الغربي لرعي الماسية، وأن يستقر السيد محمد فيه ويؤسس طريقته وسوف تعاد إليه أسرته.

– إن الماشية التي يحضرها السيد محمد عبد الله هي ملك له، وإذا لم تكن كافية فسوف تعيد إليه بريطانيا عددا آخر يكفي متطلباته، ولن تتدخل بريطانيا في شؤونه الدينية

– ليس من اختصاص السيد محمد تنظيم القبائل وحكمها، فهذا من اختصاص الحاكم البريطاني، وفي حالة نشوب صراع بينه وبين القبائل فإن الأمر سيحال إلى الحكومة التي ستتولى الحكم بالعدل في مثل هذه القضايا.

وما يمكننا أن نستخلصه من هذه الشروط أن بريطانيا تريد أن تسالم هذا المجاهد بأي وسيلة، وأنها تفضل أن يواصل جهوده الدينية في النواحي الدينية، وأن يمارس طريقته الصالحية بعيدا عن شؤون الحكم والسياسة مع إعطائه الأمان، لكن البطل الذي تخطى مرحلة الوعظ والإرشاد ونشر تعاليم الطريقة الصالحية قد أصبح في نظر قومه بطلا سياسيا، وأملا في تحرير بلاده من الاستعمار، ومن هنا لم تجد الشروط استجابة، ولم يفكر السيد محمد في الرحيل؛ بل قرر مواصلة النضال حتى النهاية.

ومن جهته كان رد السيد محمد إلى الوفد الذي زاره بهدف التفاوض يحمل عدة شروط للسلام تضمن عدة نقاط لم يرضى بها البريطانيون من البداية أبرزها أن تعاد غليه ماشيته وأغنامه وفرسانه وأسلحته ومجوهراته والعملة الذهبية التي قدرها ب: مائة ألف جنيه استرليني من العملة الذهبية، ثلاثمئة ألف جنيه من النقود، ‘شروف ألف دولار، خمس صناديق من الماس، بالإضافة إلى ألف لؤلؤة.

إلى جانب عودة جميع الأسرى الذين وقعوا في أيدي البريطانيين، وعودة المباني والمنشآت الخاصة به.

وبعد أن غادر الوفد تحرك السيد محمد إلى المنطقة الحبشية في 10 أكتوبر عام 1920 حيث التقى إلى أحد الضباط وقال: إنه جاء من منطقة الصومال البريطاني بعد أن فقد كل شيء، وأنه قد طالبا الحماية، وأرسل في الوقت نفسه إلى القائد الحبشي لأقرب موقع، ويدعى فيتوراري أربع بنادق ومسدس كهدية، وطلب بعض المؤن مقابل ذلك، لكن قبض على رجاله وكبلوا بالسلاسل، وقد حل المرض وربما الأنفلونزا بمعسكر هذا البطل، وبعد ستة أيام من المرض مات السيد محمد عبد الله حسن في 23 نوفمبر عام 1920، ودفنه أتباعه في كوخ ومقبرة صغيرة في إيمي، ولما علم تلاميذه أن الإنجليز يبحثون عن جثته ليمثلوا بها انتقاما لمصرع القائد العسكري 'كورفيلد' قاموا بفتح القبر من جديد ودفنوه في مكان مجهول[32].

وهكذا انتهت قصة هذا البطل المسلم الذي ظل يكافح طوال ثلاثة عقود من الزمن امتدت من 1899 إلى 1920 حارب فيها قوات ثلاث دول هي بريطانيا، إيطاليا، والحبشة ناهيك عن القبائل المحلية والعشائر التي تحالفت مع القوى الأوروبية ضده، فكان السيد محمد عبد الله بطلا قوميا ومعلما وشيخا لطريقة إصلاحية صوفية، وكان يجاهد بالسيف والقلم يعلم مبادئ الطريقة الصالحية التي نافست أقوى الطرق في المنطقة.

خاتمة:

إنّ أهم ما يمكن الوقوف عليه من خلال دراستنا للحركة الجهادية للسيخ محمد عبد الله حسن هو أن هذا الثائر استمد قوته وروحه الجهادية من تلك المبادئ التي تتصف بها الطريقة الصوفية الصالحية التي اكتسبها عن شيوخه في بلاد الحجاز أثناء فترة حجه لمكة المكرمة، تلك الروح صخرها لمقاومة الاستعمار البريطاني والإيطالي الذي اجتاح بلاد الصومال بعد قرارات مؤتمر برلين التي أعطت اشارة تقسيم واستعمار القارة الإفريقية.

ظهرت عزيمة وإرادة الشيخ محمد عبد الله حسن في التعبئة القوية لشعبه التي تمكن منها الشيخ في وقت وجيز، حيث جند آلاف الجنود لميادين القتال التي حققت نتائج جيدة على حساب القوى الاستعمارية التي أضحت تتهاوى في كل مرة أمام قوات الدراويش كما سماها البريطانيون.

ورغم محاولات الإغراء والتأليب والمؤامرة التي كانت تحاك ضد الشيخ محمد عبد الله حسن إلا أن ذلك لم ينقص من عزيمته في مواصلة حركة الجهاد إلى آخر دقيقة وظهر جليا في عدم تمكن القوى البريطانية من القبض عليه شخصيا، فكانت نهايته خارج بلاد الصومال، حيث توفي بمرض عضال في بلاد الحبشة عام 1920.

إن الروح الوطنية والدينية والقومية التي غرسها الشيخ محمد عبد الله حسن في نفوس أبنائه الصوماليين هي التي ستحرك مختلف شرائح المجتمع فيما بعد في مواصلة النضال ضد القوى الاستعمارية الأجنبية، خصوصا وأن المنطقة كانت محتلة من طرف قوتين عظميتين هما الإيطالية والبريطانية إلى ان تحقق الاستقلال في النهاية.

الهوامش:

[1] عبد الله هاني رجب عطا الله: **الصومال**، 2011، ص 13.

[2] عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: **المسلمون والاستعمار الأوروبي في إفريقيا**، عالم المعرفة، 1989، ص ص 187، 179.

[3] يقع إقليم الصومال الغربي (أوغادين) في المنطقة الداخلية من القرن الإفريقي، ويتخذ هيئة مثلث إحدى زواياه الحادة عند نقطة التقاء الإقليم الشمالي بالإقليم الجنوبي لجمهورية الصومال، أي: يحدُّه من الشمال الشرقي والجنوب الشرقي جمهورية الصومال، ومن الغرب إثيوبيا، ومن الجنوب منطقة الحدود الشمالية لكينيا، يتميز الإقليم بتنوع التضاريس الطبيعية؛ حيث السهول في المنطقة الجنوبية والشمالية الشرقية، وبتنوع في المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية، كما يوجد فيه كثير من المعادن كالذهب والنحاس والقصدير، وغيرها، وتم التنقيب عن النفط في بعض المناطق منه لتتوسع بذلك عوامل الخلاف بين سلطة الإقليم والسلطة المركزية في أديس أبابا، أنظر: سعيد شخير سوادي: **إقليم الصومال الغربي (أوغادين)، ووجهات الصراع الصومالي– الإثيوبي**، رسالة ما ماجستير، كلية التربية، قسم التاريخ، جامعة واسط، العراق، (د، ت)، ص 05.

[4] عبد الصبور مرزوق: ثائر من الصومال: **الملا محمد بن عبد الله حسن**، بيت المقدس، 2017، ص، ص 20-25.

[5] Dirk Spliker: Somalia on the Horn of Africa. National and Regional Lines of Conflict in the Past and Present: (somalia) Vol, 6, Published by the Heinrich Böll Foundation, 2008, p 14.

[6] John P. Slight : **British and somali Views of Muhammad Abdullah Hassan's Jihad, 1899- 1920**, (Bildhaan), vol 10, p 19.

[7] ارتبط تاريخ عدن بتاريخ البحر الأحمر الشريان الهام للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب، فهي بحكم موقعها الممتاز تسيطر على مدخله الجنوبي وتتحكم فيه، ولذلك عرفت لدى الكثيرين بأنها جبل طارق الشرق، كما ارتبط تاريخ عدن ايضا بتاريخ الركن الجنوبي الغربي للجزيرة العربية، وبتاريخ اليمن التي تغطي هذا الركن، وتمتد من جنوب نجد والحجاز في الشمال إلى البحر العربي في الجنوب، ومن حدود عمان والربع الخالي شرقا إلى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا، وهي الحدود الأصلية لليمن الطبيعية، وقد عرفت عدن أيضا بأنها عين اليمن لأنها تعتبر أهم منفذ طبيعي لها على بحر العرب والمحيط الهندي، أنظر: فاروق عثمان أباظه: **عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص، ص 23، 24.

[8] عبد الصبور مرزوق: المرجع السابق، ص ص 26، 27.

[9] عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق: ص 181.

[10] نفسه: ص ص 30، 31.

[11] محمد المعتصم سيد: **مهدي الصومال بطل الثورة ضد الاستعمار**، القاهرة (د، ت)، ص 21

[12] سالم سعيد الحضرمي: **المشهد الصوفي في الصومال- الصلة بالسلفية وانحسار الدور**، مركز المسبار للدراسات والبحوث (موقع إلكتروني)، 25 أفريل 2018.

[13] Diana Briton and Mohamood Cabdi Noor : **the Somalis Their history and Cuulture**, the refugee Center, 1993, p 12.

[14] حولت إيطاليا ميناء عصب في جوان 1882 إلى مستعمرة إيطالية، وقدم بذلك قانونا لمجلس النواب الإيطالي، وفي يناير 1885 احتل الطاليان بيلول شمال خليج عصب وطردوا الحامية المصرية منها بعد أن جردوها من السلاح، وفي شهر فيفري من نفس السنة قررت إيطاليا بالاتفاق مع بريطانيا احتلال مصوع وبسط حمايتها على الساحل من عصب إلى مصوع، وكان ذلك مبدأ تأسيس ارتريا، وفي ديسمبر 1885 تم للإيطاليين دخول مصوع واحتلالها وطردوا الحامية المصرية منها بعد أن استولوا على ذخيرتهم ومؤنهم وجميع أملاكهم، أنظر: محمد المعتصم سيد: المرجع السابق، ص 29.

[15] برزت عبقرية الشيخ محمد عبد الله في تنظيم جيشه أكثر، حيث قسم جيوشه إلى فرق، وتكوين الفرقة الواحدة يجب أن يكون من عدة قبائل وليس من قبيلة واحدة، كما عين لكل فرقة مجموعة من القواد سماهم المقدمين، وفي نفس الوقت كانت كل فرقة تنقسم إلى قسمين الأولى منها تسمى الخواص، وهم الذين رباهم على منهج التربية الصوفية الصادقة وأعدهم اعدادا روحيا خاصا، أما الثانية فهم غير الخواص وهم عامة الدراويش، وكانت أسماء الفرق معروفة في

تنظيمه كما يلي: مييننل، شيخيال، غلوين، أنط بدن، كرب سري، كرب هوس، ثار كوي، ترغ حن، ظريش، أنظر: عبد الصبور مرزوق: المرجع السابق، ص، ص 46– 48.

[16] صالح خضر محمد: **تدخل الاستعمار البريطاني في الصومال 1880– 1910م**، (مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية)، المجلد 17، العدد 4، 2010، العراق، 2010، ص ص 593، 594.

[17] صالح خضر محمد: المرجع السابق، ص 595.

[18] عبد الصبور مرزوق: المرجع السابق، ص ص 68، 69.

[19] نفسه.

[20] عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق، ص ص 189، 190.

[21] محمد المعتصم سيد: المرجع السابق، ص ص 44، 45.

[22] صالح خضر محمد: المرجع السابق، ص 597.

[23] نفسه: ص 598.

[24] Markus V. Hoehne: **Dervish State (Somalia)**, (The Encyclopedia of Empire), First Edition, 2017, p 02.

[25] عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق، ص 200.

[26] عبد الصبور مرزوق: المرجع السابق، ص ص 160، 161.

[27] نفسه: ص ص 170، 171.

[28] صالح خضر محمد: المرجع السابق، ص 598، 599.

[29] عبد الله هاني رجب عطا الله، المرجع السابق، ص 14.

[30] عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق، ص 205

[31] John P. Slight: op. cit, p.p 29-31.

[32] Lewis,Ioan **A Modern History of Somaliland**, **from nation to state**, Combridge, London,1965 , p, p 89, 91.

موقف النّخبة الجزائرية من التّجنيد الاجباري.

The position of the Algerian elite on forced conscription.

أ/ حماتيت عبد الكريم

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة– الجزائر

abdelkarimhamatit@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/10/16	2021/11/12	2021/../..

الملخص:

عارضت الحركة الوطنية الجزائرية مرسوم 1912 وشنّت حملة ضدّ التجنيد في صحفها ونواديها، بل حرّضت الجزائريين على عدم الامتثال لأوامر الإدارة الفرنسية الاستعمارية والفرار من منازلهم، وقد استجاب الشباب الجزائري لنداءات الحركة الوطنية والشخصيات الفاعلة من النخبة إدماجيه كانت او استقلالية فلم يلتحق الشياي بالثكنات في عدة مناطق من الوطن مثل باتنة وتلمسان. لكن إصرار السلطات الفرنسية جعلها تعمل على تطبيقه الفعلي مباشرة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى سواء عن طريق الإجبار او الإغراء وإقحامهم في حرب لا علاقة لهم بها.

حيث طالب رجال النخبة من السلطات الفرنسية إدخال إصلاحات واسعة في كل الميادين والتي من شأنها أن تغيّر الاوضاع السيّئة للجزائريين، وتحسين تمثيله في مختلف المجالس وإلغاء القوانين الخاصّة، في مقابل الانخراط الطوعي في الجيش الفرنسي، بينما رفض آخرون تطبيق القانون تماما، حيث جسّدوا رفضهم له في الجرائد والندوات والتّجمّعات.

الكلمات المفتاحية: التجنيد الإجباري، النخبة، الحركة الوطنية، الحرب العالمية.

Abstract:

The Algerian national movement opposed the 1912 decree and launched a campaign against conscription in its newspapers and clubs, but rather incited the Algerians not to comply with the orders of the French colonial administration and flee their homes. From the homeland such as Batna and Tlemcen. But the insistence of the French authorities made it

work on its actual implementation immediately after the outbreak of World War I, whether by coercion or temptation and involving them in a war that they had nothing to do with. Where elite men demanded from the French authorities the introduction of broad reforms in all fields that would change the bad conditions of the Algerians, improve its representation in various councils and abolish special laws, in exchange for voluntary involvement in the French army, while others refused to implement the law completely, as they embodied their refusal He has appeared in newspapers, seminars and gatherings.

Keywords: conscription, the elite, the national movement, the world war.

مقدمة:

في الوقت الذي كان فيه الشعب الجزائري يعاني الويلات من مخلفات قانون الأهالي (1) الذي عمل على كبح الحريات الفردية وإرهاق الشعب بالغرامات والعقوبات الرّدّعية حتى أطلت عليه السلطات الفرنسية بقانون التجنيد الإجباري والذي زاد من معاناتهم أكثر فأكثر. و لعل الغرض من سن هذا القانون في هذه الفترة بالذات هو توتر العلاقات الدولية مع اقتراب نشوب الحرب العالمية الأولى. فعملت فرنسا على حشد قواتها وتعزيز قدراتها القتالية في محاولة منها إلى منافسة ألمانيا التي تضاعفت قوتها وأصبحت تشكل خطرا على المصالح الفرنسية في أوربا وخارجها.

ضف إلى ذلك تراجع القوات الفرنسية في تعدادها، حتم عليها الاعتماد على مخزون الشباب الإفريقي المتمثل في مستعمراتها، الذي وجدت فيه حلا لتعويض التناقص الكبير في الشباب الفرنسي نتيجة تراجع المواليد.

1. نبذة تاريخية عن قانون التجنيد الإجباري:

يعتبر هذا القانون مشروعا قديما كان محل نقاش بين الأطراف الرسمية الفرنسية مدنية وعسكرية بداية من مشروع الجنرال موليار عام 1845م الذي يهدف إلى تجنيد 200000 جندي، وفي 27 سبتمبر 1855م أعلن وزير الحرب الفرنسي فليبار عن تكوين جيش قوامه الشباب الجزائري يقدر ب70000رجل، ولكن هذا المشروع باء بالفشل نتيجة غياب إحصائيات دقيقة تخص المواطنين الجزائريين.

وتم رفض المشروع في سنة 1857م الذي دعا إليه المفتش استرازي خوفا من رد فعل الجزائريين تجاهه. ورفض مشروع الجنرال مونتبان في عام 1859ولقي مصير سابقيه، نظرا لمعارضة وزارة الحربية الفرنسية والمعمرين لهذا القانون.

بعد هذا صدر تقرير الجنرال "مارتامبري" في 23 جوان 1864م والذي تضمن تجنيد 5000جزائري يتم تعيينهم من طرف شيوخ القبائل والخدمة لمدة خمس سنوات، ولكنه لم يلق اهتمام الإدارة والقيادة، وفي 21 أفريل 1866م صدر مرسوم يسمح للجزائريين الانضمام إلى الجيش الفرنسي طواعية مع منحة تقدر ب 400 فرنك (2) وفي الفترة الممتدة من 1872م-1874م تم رفض كل القرارات والمشاريع الرامية إلى تجنيد الجزائريين وهذا راجع إلى سيطرة المدنيين على الحكم في كل من الجزائر وفرنسا ، ومثّل المعمرون هذه المعارضة، ثم طرحت فكرة التجنيد مجددا عام 1881م- 1882م أملا في تكوين جيش قوي مكون من الأفارقة تعداده 200000 أو 300000 رجل، وتم إجهاض هذا المشروع أيضا بسبب التخوف من منح حق المواطنة للأهالي.

وفي 15 جويلية 1889م تم مناقشة قانون الخدمة الوطنية وقدم على إثره النائبان "جوليي، وميشلان" اقتراح تطبيق الخدمة العسكرية على الجزائريين في حق الحصول على حق الإدماج والحقوق السياسية. ثم قدم النائب "مارتينو" بعد عام اقتراحا يدعو فيه إلى تنظيم الخدمة العسكرية للجزائريين وتم رفض العرض من طرف الحكومة لتضارب الآراء حول الموضوع.

وقدم "شوتان" عام 1900م مشروع قانون يتم بموجبه تجنيد الأهالي الأكفاء. وتكوين فرق احتياط وفق له المعمرين بالمرصاد كسابقيه من المشاريع (3).

ولعل أهم المشاريع والدراسات التي قدمت في شأن مسألة التجنيد الإجباري هو الدراسة التي قدمها النقيب" باسول" عام 1903م والتي يتم بموجبها فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الجزائريين البالغين سن الثامنة عشر.(4) .

ومثلت الفترة بين 1907م- 1909م مرحلة حاسمة من مراحل تطبيق مشروع قانون التجنيد الإجباري وبداية مرحلة الإحصاء. أملتها ظروف الاستعداد للحرب العالمية واحتلال المغرب الأقصى، وقدم خلالها مقرر ميزانية الحرب "ميسيمي" فكرة التجنيد الإجباري في رسالة إلى وزير

الحرب يشرح فيها تراجع تعداد الجيش الفرنسي نتيجة تراجع المواليد (5) واستغل في هذا نتائج الإحصاء التي أفادت انّ الجزائر تحتوي على 05ملايين أهلي وحوالي مليونين في تونس وألحّ بضرورة استفادة فرنسا منهم وإمكانية تطبيق الخدمة العسكرية على الجزائريين.(6)

وضع وزير الداخلية كليمونصو مسألة التجنيد من أولوياته مع فتح باب التجنيد، والتي قوبلت بالرفض في بعض المناطق من الوطن كتيارت، ووسط هذا الجو المشحون لم يكن أمام كليمونصو إلا تأجيل القرار، ثم أعيد القانون للواجهة على في 19 اكتوبر1909 والبدء في عملية الاحصاء ولكن هذه المرة حرصت السلطة الاستعمارية على الهدوء خشية إثارة الاهالي, رغم هذا ثار الأهالي في كل من تلمسان ومستغانم(7).

كما طرح أيضا مشروع التجنيد في 1910م وأشرف خلالها النقيب "شادوني" على عملية الإحصاء شخصيا، حيث اعترضته صعوبات كبيرة في هذ العملية خاصة في القطاع الوهراني والقسنطيني بسبب الاحتجاجات ضد عملية الإحصاء، والتي هاجر بموجبها السكان إلى المشرق، وأصدر الجنرال "جيلي" أمرا بوقف العملية مؤقتا(8).

عيّن ميسيمي وزيرا للمستعمرات في مارس 1911م، و بعدها في جوان 1911م أصبح وزيرا للحرب، تخوف المعمرون من أن يحقق الأهداف التي كان يصبو إليها منذ كان مقررا للميزانية الحربية، وسعى بدوره إلى شرح صعوبة مهمة التعبئة عن طريق التطوع والعمل على تجنيد الجزائريين إجباريا. وخلص إلى ضرورة تطبيق الخدمة العسكرية الإلزامية في محاولة منه لتغطية العجز في عدد الجنود، وبالفعل قامت الحكومة الفرنسية بالتوقيع على المرسوم منهية بذلك الجدل القائم بين الطبقة السياسية والعسكرية خدمة لمصالح فرنسا بغض النظر على تداعياته على الجانب الجزائري، في 03 فبراير 1912م وصدر في الجريدة الرسمية الفرنسية مكونا من 30 مادة مقسمة إلى أربع أبواب(9) أما الباب الأول فأحكام عامة للتجنيد بصيغة الانضمام الإداري وإعادة الانضمام. أما الباب الثاني فيه التأكيد على الأحكام الواردة في الباب الأول.

أما الباب الثالث والذي يهمنا فيشمل ثلاث وعشرون بندا (3- 26) عبارة عن أحكام عامة تشمل الإحصاء السنوي للشبان البالغين سن الثامنة عشر، ومدة التجنيد المحددة بثلاث

سنوات، وشروط الإعفاء وعملية القرعة لتحديد العدد الخاص بالتجنيد، وحقوق المجندين ومنحهم، أما الرابع فيخص الامتيازات التي يحصل عليها قدماء العسكريين وغيرها.

2. مفهوم النّخبة الجزائرية:

النخبة من الناحية اللغوية مشتقة من الفعل نخب ومعناه المختار من الشيء، وفي الجمع ناخبات وهم صفوة الناس أو المنتخبون، ويعرفها ابن منظور في معجمه لسان العرب بقوله انخب، انتخب الشيء إختاره والنخبة ما اختاره منه ونخبه القوم ونخبتهم خيارهم، قال الأصمعي يقال هم نخبة القوم بضم النون وفتح الخاء(10) أما في الاصطلاح فيمكن تعريفها بأنهم جماعة من الناس يتميزون بتفوقهم العلمي والثقافي والذين يستطيعون بواسطة القوة التي يمتلكونها أو بواسطة التأثير أن يشاركوا في صياغة تاريخ الجماعة أو الحصول على الرّيادة وقيادة المجتمع نحو الصلاح(11) ويمكننا أن نصنّف النّخبة الجزائرية إلى مجموعتين:

النخبة المفرنسة: أو ما يصطلح عليها النخبة المثقفة وهي التي عرفت بـ" الشّباب الجزائري" أو "النّخبة" وتمتاز عموما بثقافة غربية في عمومها. تلقت تعليمها في المدارس الفرنسية وتأثروا بثقافتها وانبهروا بمظاهرها وتقاليدها .وهم ينتمون غالبا إلى أسر ميسورة الحال أو متوسطة الدّخل أو في أوساط المهن الحرة (أطباء، صيادلة , محامون.....) اقتنعوا قناعة تامة بقوة فرنسا وعظمتها واعتبروها صاحبة الحق الشّرعي في الجزائر وأصبحوا متحمسين للإدماج في عام 1911م. (12)

وقد عرّفهم أحد المفرنسين بثريات الشباب المتخرجين من الجامعات الفرنسية الذين كانوا قادرين بأعمالهم أن يصعدوا فوق الجماهير وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين"(13).

حاولت هذه الفئة الحصول على مكاسب معنوية أكثر منها مادية وانضمّ إلى موقفهم الموظفون في السّلك الفرنسي كالقياد والمساعدين والآغا والباشا آغا. وهي لا ترى مانعا في المشاركة إلى جانب فرنسا في الحرب مقابل حقوق سياسية يحصلون عليها .

وأطلق عليهم كذلك مسمى البورجوازية الجديدة كونهم تبنوا أفكارا مخالفة للتوجه الإسلامي كالإدماج والمساواة والمواطنة، وهذا راجع إلى تكوينهم الفرنسي البحت وتأثرهم بالثقافة الغربية ووصل ببعضهم إنكار أصولهم الإسلامية كونه تربى في كنف محيط وبيئة فرنسية بحتة، كما اعتمدوا

اعتمادا كليا على الثقافة الفرنسية وحدها دون سواها, في محاولة منهم لإنكار الثقافة الإسلامية معتقدين في ذلك انّ تاريخ الجزائر الحقيقي يبدأ من سنة 1830م وأن فرنسا ما فتئت تعمل على تحضُّر الشعب الجزائري. (14)

المحافظـــــون: وهي الفئة التي أطلق عليها في الوثائق الفرنسية الأعيان والنّبلاء وضمت كل من العلماء و زعماء الطّرق الصّوفية , وبعض الإقطاعيين والمرابطين وقدماء المحاربين الذين كان لهم دور كبير في التصدي للاستعمار الفرنسي منذ البداية(15) .

كانت هذه الفئة ذات تكوين إسلامي عربي حافظت على الإنتماء الحضاري. وَصَفَهُم بعض الكُتاب الفرنسيين بأنهم أصحاب العمائم تميزوا في مطالبهم برفض التجنيد الإجباري، وكانوا في غالبيتهم من أنصار فكرة الجامعة الإسلامية، تكونت في المدارس القرآنية والكتاتيب والمدارس الإسلامية الحكومية والمساجد داخل وخارج الوطن خاصة المغرب الأقصى وتونس والمشرق العربي(16) .

3. رد فعل الجزائريين اتجاه التّجنيد الإجباري:

3.1. انتفاضة بني شقران: (معسكر) وقعت هذه الانتفاضة نتيجة اجتماع مجموعة من الأسباب نذكر منها الاغتصاب المنهج للأراضي وزيادة حركة الاستيطان أو بالأحرى ما تمخض عن قانون الأهالي الجائر ،ولعل القطرة التي أفاضت الكأس هو قانون التجنيد الإجباري الذي قوبل بالرفض خصوصا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، قررت السلطات الفرنسية الإسراع في تطبيق التجنيد الإجباري , ففي سبتمبر 1914م ارتفع عدد المجندين في هذه الدفعة من 2500 جندي إلى 10000 جندي، حيث عقدت قبائل بني شقران، أولاد سيدي دحو، مجاهر ، أولاد خليفة ، البرجية وسكان بابا علي اجتماعا سريا لتأكيد رفضهم القاطع للتجنيد الإجباري مبرزين فيه فلسفة الرفض والتحدي للاستعمار(17) .

اتفقت هذه القبائل على ضرورة النضال في كل اجتماعاتها، وفي المقابل اختلفت في الوسائل التي ستستخدم فيه فمنهم من كان يرى ضرورة التظاهر كقبيلة أولاد سيدي دحو وكذا أعيان البرج وتغنيف،أما عروش بني شقران فقد سلكت مسلك النّضال المسلح ,فرغم اختلاف الوسائل إلا أن هذه الحوادث كانت تكمّل بعضها البعض(18).

بدأت أحداث الثورة في 21 سبتمبر1914م بقرية سيدي دحو التي تبعد بقليل من معسكر وامتدت إلى بني شقران، والسّبب بداية تطبيق إجبارية الخدمة العسكرية واستدعاء الشباب للفحص الطبي الممهد للتجنيد، الأمر الذي دعا الأهالي إلى التّجمع ومقابلة المتصرف الذي حاول تهدئة الأمور بتقديم وعود كاذبة، مع حرصه على أن يتقدم الشباب للفحص, الأمر الذي حزّ في أنفسهم ورفضوا التقدم للفحص وتظاهروا أمام البلدية. وكان رد السّلطات الفرنسية أن قامت باعتقال أعيان القرية بتهمة التّحريض على العصيان والتمرد وسجنهم، وفي طريقهم إلى السّجن هاجم المتظاهرون الشرطة وفرّ عدد من السجناء ثم ألقي عليهم القبض فيما بعد، وتدخلت فرقة من الجيش لاحتواء الوضع وحاصرت قرية سيدي دحو وألقت القبض على الشباب محل البحث ليقتادوهم مباشرة إلى العسكرية دون فحص (19).

ضف إلى هذا استعملت السّلطات الفرنسية فرقة من 1500جندي في محاولة منها للقضاء على الانتفاضة ،اقتحمت بها بعض القرى التي لها علاقة بالانتفاضة وإحراقها بقيادة الجنرال "لاري" الذي أمر بالتفاوض مع الشباب الفارين إلى الجبال موجها إليهم قائد المنطقة مكلفا بالتفاوض، وفي الأخير تم إلقاء القبض على وفد الشباب المفاوض، وبنفس هذه الأساليب تم القضاء على هذه الانتفاضة التي حكم في نهايتها على 42 شخص، 13 منهم بالإعدام والباقي بالسجن(20).

ثورة الأوراس 1916م: اندلعت هذه الثورة كرد فعل على التّجنيد الإجباري خاصة بعد ورود معلومات مفادها سقوط عدد كبير من المجندين في الجيش الفرنسي قتلى في المعارك الدائرة في أوربا في ح ع 1.

ضف إلى ذلك سعي السلطات الاستعمارية إلى تجنيد أكبر عدد ممكن من الشّباب الأمر الذي لاقى رفض من طرف الأهالي خاصة الشباب المعنيون بالتجنيد. الذين عملوا على مهاجمة المنطقة الواقعة بين بريكة وششار والأوراس ،وشملت هذه الثورة بلديات عين توتة , عين مليلة، عين قصر، خنشلة ، الأوراس.

ففي الوقت الذي استهانت السلطات الاستعمارية بهذه الأعمال أصبحت أكثر كثافة مستهدفين في ذلك خطوط الهاتف والتلغراف والجسور،كما أنهم هاجموا الممتلكات ومنازل

الأوروبيين ، ومست الأحداث كذلك برج "ماك هون " الإداري ومصرع نائب عمالة باتنة "كاسينيلي"والحاكم الإداري بباتنة(21).

وتعرضت مزارع المستوطنين لعمليات التخريب وقتل عدد كبير منهم ،وشملت الهجومات عدد من الثكنات العسكرية في محاولة لتخليص المجندين .

استمرت هذه الثورة حتى شهر ماي 1917م بلغ عدد القتلى في صفوف الثوار حوالي 100 رجل أما من الجانب الفرنسي فبلغ عدد القتلى15 شخصا، ضف إلى ذلك سجن الكثير من الثوار و حكم عليهم بأحكام جائرة صورية تراوحت بين الإعدام والسجن والتغريم(22).

الهجرة: جعل قانون التجنيد الإجباري الجزائر تعيش في اضطراب نتيجة معارضته الشديدة من قبل الشعب خاصة الأعيان وهذا قبل صدوره، ولكن بعد صدوره وترسيمه من قبل سلطات الاستعمار قامت حركة هجرة واسعة نحو البلدان العربية الأخرى خاصة المشرقية منها. حيث غادر آلاف الجزائريين إلى حيث يتخلص من القوانين الجائرة.

وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عملت فرنسا على مضاعفة عمليات التجنيد لسد حاجياتها من الجنود وعمال المصانع والفلاحة قدرت بالتقريب حوالي 270ألف شخص، هذا ما أدى إلى تسارع وتيرة الهجرة، حيث يقول الكاتب الفرنسي مارسي" أن الحياة الاستعمارية الجديدة من بين الأسباب التي قادت إلى الهجرة الجزائرية فقد كان ذلك يعني أنه لم يعد في استطاعة الجزائريين أن يتمتعوا بحياتهم القديمة كما كانوا سابقا (23).

خافت فرنسا في بداية 1913م إن هي دخلت في غمار الحرب العالمية الأولى اغتنام الشعب الجزائري للفرصة وقيامه بالثورة ضد الهيمنة الاستعمارية، خاصة وأن مقومات الثورة تجلت في مجموعة من القوانين المفروضة على الشعب مثل قانون الأهالي والتجنيد الإجباري الذي ما انفك الشّعب الجزائري يطالب بتغيير بنوده. ضف إلى ذلك استمرارها في سياسة القهر التي انعكست سلبا على الحياة الاجتماعية للأهالي،كل هذه الأمور اجتمعت لتزيد من معاناة الجزائري ، أضافت لها السلطة الفرنسية تكليف الشرطة بتسيير أمور الجزائريين والإشراف المباشر عليهم.

استعملت فرنسا أسلوب الدّعاية القائم على إيهام الرأي العام العالمي والمحلي والجزائري انّ هذا الأخير كان يؤيد فرنسا في حربها مستدلة بذلك بأعمال الدعم المادي التي قام بها عملاؤها

الموالين من إداريين وأعيان وحتى المنخرطين طواعية في الجيش الفرنسي،ولكن الواقع غير ذلك لأن رد فعل الشّعب حيال هذه الوسائل كان في الميدان كالتظاهر والاحتجاجات والعرائض المكتوبة والوفود وأخيرا الهجرة خاصة إلى بلدان المشرق الإسلامي.

وجد على جدران المساجد ملصقات كتب عليها " هذا زمن الصّمت فإذا تكلمت الباطل فستعيش وإذا تكلمت الحق ستموت " وهذه الملصقات تبين انتقاد السّلطة الفرنسية التي واصلت سياستها متجاهلة ما سينجز عنها وسخرت حتى المساجد في عمليات التجنيد والنداء للحرب.

رسالة أخرى اكتشفت بتاريخ 1914/09/25 كتبت إلى شخصية إيطالية مرموقة يصف فيها صاحبها حالة الاضطهاد الممارسة على الشعب الجزائري خاصة المتعلقة بموضوع التجنيد الإجباري.

نفس الشيء حدث مع عمر راسم الذي ضبطت رسالته الموجهة إلى جريدة الشعب المصرية, يظهر فيها صراحة رغبته في الاستقلال والتخلص من الاستعمار والاستبداد وتم اكتشاف رسالة أخرى في ديسمبر 1914م تحوي وصف للحالة التعيسة التي يعيشها الشعب الجزائري، وعملت هذه الرسائل على فضح السلطة الاستعمارية التي روجت عبر وسائل الإعلام الدّعم الجزائري للقوات الفرنسية في حروبه .

من وسائل الحرب النفسية التي استعملها الجزائريون في الردّ على الممارسات الفرنسية هي الوقوف مع القوات الألمانية التي انتصرت على فرنسا في عدة معارك بالتهليل والتبشير .

أسلوب آخر استعمله الجزائريون كرد فعل على الأوضاع المزرية هي فرار المجندين الرافضين للتجنيد(24).

3. موقف النّخبة من التّجنيد الإجباري:

ظهر دور النّخبة عندما صدر مرسوم 17 جويلية 1908 والذي تم فيه إعداد القوائم للشباب الجزائريين بغية تجنيدهم.أين عارضت النّخبة هذا الإجراء وكذا بعد أن أعلنت الإدارة الاستعمارية قانون التّجنيد الإجباري في 03 فبراير 1912 والقاضي بتجنيد كل شاب جزائري

بلغ سن ال18 في الجيش الفرنسي والذي واجه معارضة شديدة سواء من النّخبة أو من الأهالي
.

أما بخصوص رد فعل النّخبة تجاه مرسوم 1908/07/17 بكتابة عريضة من طرف أعيان تلمسان تتكون من 17 صفحة تضمنت الموقف الذي سيتخذه سكان المنطقة إذا ما استمرت السّلطات الاستعمارية في التّجنيد وقد أوكل إلى المحامي بن رحال (25) مهمة إيصال العريضة إلى باريس في سنة 1908 يذكرون فيها رفضهم للتجنيد. وطالبوا في المقابل الحصول على حقوق أولية كشرط للخدمة العسكرية (26).

وفي أكتوبر 1908 بعثت لجنة الدّفاع عن حقوق المسلمين وفد إلى باريس للحصول على بعض الحقوق السّياسية ترأس الوفد المحامي أحمد بوضربة حيث طالب بإلغاء قانون الأندجينا والحصول على المساواة في الضرائب والإكثار من المدارس وعندها يكون الجزائريون مستعدون لدفع ضريبة الدم وقبول التجنيد في صفوف الجيش (27)، ولكن قابل هذا الوفد " جورج كليمانصو" الذي كان عندئذ رئيسا للوزارة الفرنسية. فاحتج أعضاء الوفد لديه ضد المشروع ولكنه حاول تهدئة الأمور وقال صراحة بأن التجنيد سيطبق ولكنه وعدهم بتوسيع مجال الحقوق، ورفضه مسألة الإدماج, لأن الوفد دعا إلى الارتقاء بكل من ساهم في الخدمة العسكرية بصفته مواطن فرنسي وجاء الرفض خشية إدماج العرق العربي في المؤسسات الفرنسية نظرا لتباين العادات والتقاليد .

كما كان لهذا الوفد مداخلة بقيادة علي فكار في أشغال مؤتمر إفريقيا الشّمالية هذا ما جعل الحاكم العام "جونار " يقدم لرئيس الحكومة في 10 ديسمبر 1908 برنامجا يتعلق بإشراك الأهالي في الحياة الفرنسية العامة وتلطيف نظام الإقصاء الذي يخضعون له(28).

وبعد أن تبلورت حركة النّخبة واتضحت معالمها نوعا ما تجمّعوا في شبه هيئة سياسية عرفت باسم الجزائر الفتاة وحاولوا ان ينسقوا العمل بينهم ليبلوروا أفكارهم السياسية في قوالب تكون مقبولة لدى الأوربيين تدعوا إلى المصالحة ونسيان الماضي وتحقيق التعاون والتكامل مع الأوربيين(29).

ومع صدور قانون التجنيد الإجباري في 03 فبراير 1912ونشره في الجريدة الرسمية، ثار ضده عناصر النّخبة وبعثوا بوفد إلى باريس يحمل عريضة يوم 18جوان 1912 لمقابلة رئيس الحكومة " بوناكري" وقدموا له العريضة مطالبين بمجموعة من الحقوق السياسية، وفي المقابل يقبل الجزائريون الانخراط في الجيش الفرنسي وهذا دليل على كون عناصر النخبة لم تكن تعارض قانون التجنيد، بل اقترحت مجموعة من الشروط من أجل قبول التجنيد.

طالبت النخبة من فرنسا الوفاء بعهودها المتعلقة بما أمضته على الورق بخصوص أن الجزائر مقاطعة فرنسية في ظل الجمهورية الثالثة والتي دعت فيه فرنسا إلى إدماج الجزائريين في فرنسا (30). وكان أكبر دور قامت به النخبة يعود إلى سنة 1912 على أثر قانون التجنيد الجائر حيث تحركوا رافعين مجموعة من المطالب مقابل أداء الخدمة العسكرية (31).

حاولت الإدارة الاستعمارية اللّعب على وتر العاطفة تجلت في خطاب الحاكم العام في أوت ونوفمبر1914م الذي لمح إلى حصول الجزائريين على امتيازات في حالة مشاركتهم في الحرب، وهو ما جعل البعض يشارك طمعا في تلك الوعود وهي جماعة الشبان الجزائريين الذين رأوا أن مشاركتهم في الدّفاع عن العلم الفرنسي وتضحيتهم من أجله قد تشفع لهم عند الفرنسيين ويحصلون مقابلها على حقوقهم كاملة غير منقوصة(32)

ما يؤكد هذا الكلام هو قول الأمير خالد" بعد نهاية الحرب العالمية الأولى: "إن مئات الآلاف الجزائريين ماتوا من أجل وطن بقي يعتبرهم دائما رعايا، ومن أجل حقوق لم ينالوا منها شيئا حتى بعد انتصار فرنسا، والواقع أن الشّبان الجزائريين لم يطالبوا بهذه الحقوق صراحة بل كانوا يعلنون الولاء الأعمى للسلطة الاستعمارية وكانوا يعتبرون الفرنسيين إخوانهم، وهذا ما صرّح به الحاج عمار (33) الذي قال" نحن نحمل السّلاح للدفاع عن الحق وعن بلدنا المهدد فرنسا (....) يا مسلمي الجزائر يجب ان نحمل السّلاح رفقة إخواننا الفرنسيين ونحارب من أجل العدالة والحرية....).

أما الصادق دندان فقد عبّر عن سعادته بهذه الفرصة التي أتيحت له ليظهر ولاءه المنقطع النّظير لفرنسا قائلا "إننا سعداء بأننا أخذنا مكاننا في العائلة الفرنسية. إن الحرب فرصتنا لإثبات إخلاصنا لفرنسا.

عمل الشّبان الجزائريون على التّهدئة زاعمين أن هناك أطراف تريد استغلال الحرب العالمية الأولى للثورة ضد فرنسا. يتجلى هذا في نداء محمد بن سيام النائب البلدي بحسين داي للأهالي:" حافظوا على هدوؤكم ولا تثيروا الاضطرابات......)(34) .

رغم الولاء الأعمى الذي قدمه الشّبان الجزائريون لفرنسا نجد أحد الكتاب الفرنسيين يدّعي أنهم عملوا على التّحريض بأقلامهم التي يجيدون استخدامها، إلاّ أن الواقع غير ذلك كون معظم الشّبان شاركوا في الحرب عن قناعة، إذا استثنينا بعض المناشير الخفية للدعاية الألمانية، العثمانية ضد السلطة الاستعمارية.

طالب شبان النّخبة بالتعليم الغربي والتّجنيس والإدماج ونفوا علاقاتهم مع الجامعة العربية نهائيا، ثم إنهم بعد أن دخلت الدولة العثمانية الحرب مع فرنسا وقفوا مع فرنسا ضد إخوانهم في الملّة. حيث صرح النائب البلدي علي محي الدين باسم الأهالي قائلا "إن موقف الدّولة العثمانية لا يعيننا ولا يغيّر من ولائنا وإخلاصنا لفرنسا شيئا بل يربطنا بها وبحكومتها أكثر"(35).

حاول الشّبان الجزائريون إثبات ولائهم لفرنسا حين أعلنوا استعدادهم للقتال في صفوف الجيش الفرنسي، في المقابل تراجعوا وامتنعوا عن المطالبة أو تذكير فرنسا بالحقوق الواجب الحصول عليها مقابل التجنيد(36).

ولكن خيبة الأمل لدى الشبان الجزائريين تظهر مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بعد تنكر السّلطة الاستعمارية للحقوق والوعود المزعومة وبالتالي بقوا مواطنين من الدرجة الثانية .

موقف المحافظين: وفي مايلي بيان لاهم مواقف النخبة المحافظة ازاء قانون التجنيد الاجباري ،فمن أهم الشخصيات التي كان لها موقف إزاء مسألة التّجنيد الإجباري الشيخ عبد الحليم بن سماية(37) الذي رفض القانون من البداية وهمّ بالخروج والهجرة إلى المشرق لو طبق هذا القانون, وعمد إلى تقديم الاستقالة من جميع وظائفه في المسجد الجامع وباع مسكنه وأهدى كتبه ولم يبق له إلا مصحفا للقرآن الكريم، ولكن السّكان منعوه وحالوا دون هجرته وقالوا " إن هجرتنا أنت فإلى من تتركنا "فاهتزّ الشّيخ لهذا الموقف وشكر سكان الجزائر على صنيعهم وتراجع عن الرّحيل (38) .

عند استدعاء السّلطات الاستعمارية للشيخ عبد الحليم بن سماية والاستفسار عن رأيه بخصوص قانون التّجنيد الإجباري للجزائريين في الجيش الفرنسي في 25 جويلية 1911 وبحضور كبار الشّخصيات من الجانبين الجزائري والفرنسي استسمح الشّيخ الحضور بالكلام إن هم أذنوا له فقالوا تكلم يا أستاذ فقام من مكانه قائلا "......لو أنهم قبلوا الخدمة العسكرية للدّولة الفرنسية فإنهم لا يكونون بذلك مسلمين بمعنى الكلمة رغم ما سيحصلون عليه من الحرية وقد اعتمد على قوله بما جاء في الكتاب والسّنة " .

وقال: دعوى أن ذلك يدفع فرنسا إلى فتح الحرية السّياسية للجزائريين وهي دعوة باطلة، واعلموا أنه إذا منح لهم ذلك مقابل تجنيدهم تكون هناك الضّربة القاضية على القومية الإسلامية والجنسية معا لأن ذلك سيؤدي الى اندماجهم في الأمة الفرنسية نهائيا. وتكلم الشّيخ عن التّجنيد الإجباري وتأثيره على الجزائريين كونهم لاحظوا بأن الجنود المسرحين من الخدمة العسكرية هم أناس مستهزؤون بالقيم الإسلامية فهم يستبيحون شرب الخمر ويتجاوزون عن صيام شهر رمضان المعظم فصارت سيرتهم محل انتقاد العام والخاص، هذا ما أدى بالشيخ محمد بوقندورة مفتي الحنفية ليوافق على مواقف الشيخ وعلى رفض مشروع التّجنيد الإجباري . وقال للجزائريين " لا يجوز محاربة العثمانيين فهم دولتنا" أي أن المسلم لا يجوز له محاربة المسلم وذهب إلى القول بحرمة التجنيد حتى لا يكون ذريعة للناس لجمع قوتهم من جرائم يقومون بها في باقي المستعمرات. ولما أصدرت فرنسا فتوى بمساعدة العلماء الموالين لها تجيز محاربة العثمانيين رفضها بشكل كامل(39).

وهذه المواقف لا نجدها عند بقية النّخب الأخرى التي بقيت قريبة من الاستعمار في جميع مواقفه ونعني بها الطّبقة المثقفة التي طالما تجنست ودعت إلى الإدماج ورحبت بالتّجنيد الإجباري(40).

أما عمر راسم (41) فقد كان من الذين حملوا على عاتقهم الردّ على المستعمر الفرنسي وقوانينه الجائرة, وكانت معظم مقالاته في جريدة الحق الوهراني حول التّجنيد الإجباري...... فهو يجسد الشّخص الصّادع بالحق الذي لا يهون فيه ولا يضعف وبهذا يمثل ذاك الصّراع المرير الذي كان يقسّم النّخبة المثقفة قبيل الحرب إلى فريقين, فريق متفرنس لا تعز عليه مقومات الشّخصية

في سبيل الحصول على الحقوق السياسية وفريق مسلم محافظ لا يقيم وزنا للحقوق السّياسية على حساب أصالته الحضارية .

عمل على مهاجمة أولئك الذين "…. تخلقوا بمفاسد التّمدن الحديث فراحوا ينتصرون للخدمة العسكرية الإجبارية ظنا منهم أن سبب انحطاطنا هو الدّين وأن الخدمة العسكرية تجبرنا على مخالطة إخواننا الفرنسيين وأبناء الأجانب فتخلق بأخلاقهم وتذهب من عقولنا تلك الأوهام الدّينية والخرافات الإسلامية خلاف ما يظهر من أن الذي دعاهم إلى قبولها (أي الخدمة العسكرية) والرضا بها هو الطمع في بعض امتيازات ينالها المسلمين بعد أدائهم للخدمة (42).

من الأعمال التي يذكرها عنه من عايشه من بينهم أحد أقربائه المدعو جمال الدين سفينجة فيقول: في سنة 1912م كنت أبلغ من العمر إحدى عشر سنة .، يضيف ان عمر راسم أخذه معه مرة إلى ساحة الشّهداء وأعطاه مجموعة من المناشير قصد إلصاقها في حائط هناك وأخرى على باب إحدى الحانات "ابولون" فقام بالعمل ولما شاهد الناس يهبون لقراءة المنشورات أدرك أنها نداء للشعب الجزائري للوقوف في وجه قانون التجنيد الإجباري الذي أرادت الحكومة الفرنسية تطبيقه على الأهالي قسرا. (43).

وقال لو تمسّك المسلمون بدينهم تمسكا حقيقيا وفهموه فهما نقيا من الخرافات والأوهام لما بقي شبر من البسيطة يحكمه غير المسلمين، وهذا في تقدير عمر راسم قصر النّظر وخلط في الرأي (44).

تعتبر قضية التّجنيد الإجباري من القضايا الكبرى التي اهتم بها عمر راسم وأعطاها صبغة دينية أكثر منها سياسية، من جهة أخرى نجده يشعل حربا ضد أنصار التّجنيد من النّخبة الجزائرية فيقول:" قامت جماعة ممن تخلقوا بمفاسد التّمدن الحديث وشرور الحضارة الجديدة وانتصروا للمشروع السّيئ وأظهروا حبهم له ظنا منهم أن سبب انحطاطنا هو الدين فهم في ظلال مبين.

نستنتج من هذا أنه أولى اهتماما بالغا للقضية التي اختلفت فيها الآراء بين رافض ومجند وبين مساوم ومناوئ، حيث عالج القضية بدقة ونضج سياسي مستغلا الفرصة لإظهار الوضع العام في الجزائر، يقول عن الصحافة: هي ترجمان الأمم وأعظم واسطة يبلغ نفعها مصادر الخدمة العمومية ووظيفتها أكبر الوظائف في الإسلام لأنها أحكم الوسائل وأقوم السبل لتربية الشعوب

وترقية الأمم، وهي الباثة في عقول الأحرار روح الفضيلة واليقظة، فهي الآلة المؤثرة في النّفوس بالتّرغيب والتّرهيب والأمر والنّهي والحضّ والزّجر(45)

يعتبر عمر بن قدور (46) كسابقيه من الرافضين لفكرة التّجنيد وكذا التّجنيس التي كانت من قضايا تلك الفترة والتي أسالت الحبر الكثير بعد مقاطعة الشعب عامة لقانون التجنيد الإجباري.

عبّر عمر بن قدور عن رفضه لقانون التّجنيد الإجباري الذي يعتبره تهديدا للعربية والإسلام والهوية الجزائرية التي أصبحت على المحك. ويظهر هذا من خلال كتاباته السياسية التي نشرها في الصحافة العربية خارج الجزائر (47). يقول حول موقفه من قانون التجنيد: فمالنا من رغبة في الاندماج في فرنسا ولا بغيرها من الأجناس ومالنا من رغبة في نيل حقوق تجرّ علينا الويل والدّمار وإننا لا نريد من فرنسا أن تمنّ علينا بها وتمدنها وعدلها لأن لنا تمدنا وعدلا ذقناهما فصار كل شيء عندنا بعدها مرّا وهل بعد ذوق العسل تذوق الحنظل"(48).

عبّر بن قدور عن رفضه لهذا القانون من خلال كتاباته الصّحفية ومواقفه التي عبّر عنها بكتاباته في الصّحافة المصرية والتونسية باسم مستعار خشية التعرف عليه وكذا محاولة منه إعطاء القضية بعدا عربيا (49).

حاول عمر بن قدور جاهدا من خلال كتاباته إثبات قضية أن الرّقي الاجتماعي في ظلّ السّلطة الاستعمارية لن يتم بالحصول على الحقوق السياسية وإنما عن طريق التعليم، وأن القوة لا تتحقق بانصهار المسلمين في الجنس الفرنسي وهذه ادعاءات فرنسية جاءت لتدعم بها مشاريعها مثل مشروع التّجنيس والتّجنيد الإجباري، بل بالحفاظ على تعاليم الدّين الحنيف والتّمسك بها (50).

خاتمة:

مما سبق نستنتج عزم السّلطة الاستعمارية على تطبيق قانون التجنيد الاجباري لكن في كل مرة تتراجع عن تطبيقه رغبة في ايجاد الصّيغة الملائمة التي تلقى الاجماع لدى الجزائريين مخافة ثورة الاهالي رغم رفض المستوطنين للقانون كونه يضمن حصول الاهالي على حق الادماج والتجنيس، لكن في 03 فيفري 1912 تم تطبيق قانون التّجنيد الاجباري دون مراعات الاثار المترتبة عنه،

نظرا لحاجة فرنسا الماسة الى الجنود لضمان امنها والظروف الدّولية التي كانت تـنبئ باندلاع الحرب العالمية الاولي

لم يمر تطبيق القانون مرور الكرام على الجزائريين بل ثاروا ضد تطبيقه واختلفت طرق الرّفض فاختارت فئة الهجرة نحو المشرق ودول الجوار واختارت فئة اخرى الثورة المسلحة مثل ما حدث في الاوراس ، واختارت اخرى اسلوب العرائض والمظاهرات ممثلة في حركة الشّبان الجزائريين التي لم تكن تعارض التّجنيد بقدر ما كانت تسعى من ورائه الحصول على امتيازات وفرصة للمطالبة بحقوق المواطنة ،واختارت فئة المحافظين معارضة القانون من الاساس ولاقت دعما كبيرا من عامة الجزائريين لأنه يتناقض مع مبادئ الشريعة الاسلامية، ويجعل المسلم يقف في وجه اخوته من اهل الملة الواحدة (العثمانيين) وهدا ما ادى بهم الى الهجرة الى اوروبا واللحاق بالجيش العثماني .

ولعل العدد الكبير من القتلى في صفوف المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي في حرب لا تعنيهم، جعلهم يستشعرون ضرورة الّدفاع عن وطنهم الام الجزائر خاصة بعد احتكاكهم بجنسيات اخرى من اوروبا وافريقيا وتبادلوا معهم الافكار التي تدعو الى التحرر والثورة.

الهوامش:

(1) قانون الأهالي: صدر هذا القانون عام 1871م ودخل حيز التنفيذ عام 1874م وهو عبارة عن مجموعة من النصوص الخاصة يتم بموجبها على الجزائريين إظهار الطاعة العمياء للمستوطنين وكذا السّماح للإدارة المدنية في الجزائر بسجن الأفراد ومصادرة أملاكهم ضف إلى ذلك عمل هذا القانون على تقييد حركة الجزائريين أنظر: عبد الوهاب بن خليف- تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال. ط1- دار طليطلة. الجزائر -2009.ص61.

والاهالي اسم يطلق على السكان الأصليين للمستعمرات ويعني التحقير بهم. استخدمته فرنسا في مستعمراتها للتميز بين الفرنسيين المستوطنين والسكان الأصليين- صالح بلحاج- تاريخ الثورة الجزائرية- دار الكتاب- الجزائر 2008م- ص49.

(2) عبد القادر بلجة- مسألة تجنيد الجزائريين في الجيش الفرنسي وانعكاساتها على المجتمع الجزائري 1907م-1945م. أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر. جامعة الجيلالي اليابس. سيدي بلعباس- 2015م- 2016م. ص31

(3) نفس المرجع ص32.

(4) نفسه ص33.

(5) نفسه ص35.

(6) نفسه ص36.

(7) نفسه ص39. 40.

(8) نفسه ص41.

(9) نفسه ص42 – 43.

(10) مجموعة من المؤلفين – المنجد في اللغة العربية- دار المشرق- بيروت 1990 ص796- جميل حمداوي سوسيولوجيا النخب (النخبة المغربية انموذجا)ط1 – 2015-ص 76.

(11) بشير بلاح تاريخ الجزائر المعاصر (1830م- 1989م) دار المعرفة بالجزائر – 2010- ص119.

(12) عبد القادر حلوش – سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر – دار الأمة – الجزائر1999م –ص 251.حكيم بن الشيخ ،دور الامير خالد في الحركة الوطنية الجزائرية (1912-1936)،رسالة ماجستير ،جامعة الجزائر قسم التاريخ ،2002،ص83*، أبو القاسم سعد الله – تاريخ الحرة الوطنية (1900م- 1945م)دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان – 2005، ج2 ,ص 231م- عبد الرحمن الجيلالي – تاريخ الجزائر العام – ديوان الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر 1982م ص330.

(13) حلوش - المرجع السابق ,ص 251. - عمار طالبي – الإمام عبد الرحمن امحمد بن باديس – حياته وآثاره – دار كراكدة للنشر والتوزيع- الجزائر 2013م- ج1 – ص22.

(14) سعد الله، تاريخ الحركة الوطنية , ص232.- ثابتي حياة الحرب العالمية الأولى وانعكاساتها على الجزائريين في القطاع الوهراني – ماجيستير في التاريخ- جامعة السانية وهران -2006،ص47

(15) ثابتي حياة ، المرجع السابق, ص 48.

(16) عبد النور خثير، منطلقات الحركة الجزائرية (1830م- 1954م) دار كراكدة الجزائر ،2010 ، ص140. ثابتي حياة ، المرجع السابق ، ص48.- حلوش ، المرجع السابق ، ص267

(17) عدة بن داهة – ثورة بني شقران 1914 وموقعها من المقاومة الوطنية الجزائرية للاحتلال الفرنسي – مجلة عصور الجديدة – العدد 11- 12- فبراير(1434هـ- 1435هـ /2013م-2014م) ، ص306 – مهديد ابراهيم – الجزائريون في القطاع الوهراني بين1900 ،1940 الجذور الثقافية والهوية الوطنية، دكتوراه – معهد التاريخ – جامعة وهران 1999م ,ص213.

(18) حياة ثابتي – المرجع السابق ، ص48.

(19) – غالم محمد - انتفاضة معسكر أو دينامية النضال الشعبي في القرن 20- المجلة التاريخية – النصف الأول من 1986- القبة، الجزائر 1986م ، ص 99.

(20) – بجاوي محمد الصادق ، مقاومون ومجندون جزائريون في الجيش الفرنسي 1830م-1918م- دار القصبة للنشر ، الجزائر ، ص375.

(21 بودي شنوف،اصول انتفاضة 1916 ناحية باتنة وبلزمة ، ترجمة عزوزي صالح ، جمعية اول نوفمبر ، مطبعة عمار قرفي ،باتنة ،1996 ،ص495

(22) بجاوي محمد الصادق, المرجع السابق، ص377.

(23)أبو القاسم سعد الله , الحركة الوطنية الجزائرية، ج2،ص112 – فرحات عباس،ليل الاستعمار تر,أبو بكر حال، دار القصبة، الجزائر 2005،ص60. أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الحركة الوطنية 1900- 1930- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983، ج2، ص155- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي 1830- 1954، ط، دار الغرب الإسلامي بيروت ، لبنان 1998،ج5،ص473.- شترة خير الدين، قضايا تاريخية في الإسهام الفكري والحضاري ،دار الصديق للنشر والتوزيع ،2015

24) ناصر بلحاج, مواقف الجزائريين من التجنيد الإجباري (1912- 1916) رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة بوزريعة 2004- 2005-, ص140 , 141, 142.

(25) محمد بن رحال :هو محمد بن الحاج بن حمزة بن البشير بن احمد بن علي بن رحال ولد يوم 16ماي 1857 بمدينة ندرومة من عائلة مشهورة بالعلم نال شهادة البكالوريا سنة 1874 وعمره 17 سنة 'كان ابه اماما في مدينة ندرومة في 1839 في ظل حكومة الامير عبد القادر 'كان مثقفا مزدوج اللغة تم تعيينه في منصب خليفة الاغا سنة 1879 'ثم قايد سنة 1878 'خلفا لابيه الى غاية 1884 'كما انتخب سنة 1922 بالمجلس العمالي بوهران وعضو بالمجلس المالي ،انظر :عبد الخميد حاجيات ،قراءة لوثيقة محمد بن رحال حول المطالبة بالاصلاحات 1891 ،مجلة افكار وافاق ،جامعة الجزائر 2،العدد 3 ،جانفي جوان ،2012 ،ص 53،54

(26) شارل روبيرت أجيرون- الجزائريون وفرنسا(1871-1919) تر: حاج مسعود بلعريبي, دار الرائد للكتاب , الجزائر 2007, ج2، ص715.

(27) تابتي حياة ، المرجع السابق،ص715.

(28) – اجيرون، المرجع السابق، ص715 – غي بريفيلي , النخبة الجزائرية الفرانكفونية 1880م-1962, دار القصبة للنشر، 2007، ص138.

(29) يحي بوعزيز ، الاتجاه اليمني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه،ديوان المطبوعات الجامعية،1991.

(30) مسعودة بلمسعي ، التجنيد الاجباري الفرنسي وآثاره على الجزائريين , مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة محمد خيضر، بسكرة 2012, 2013، ص26.

(31) –محفوظ قداش، الجزائر للجزائريين، ترجمة المعراجي المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر 2008، ص27

(32) ناصر بلحاج، المرجع السابق، ص129.

(33)الحاج عمار من اعضاء حركة الشبان الجزائريين وهو نائب ببلدية جيجل .

(34) ناصر بلحاج، المرجع السابق، ص30.

(35) نفس المرجع، ص 31.

(36) نفسه، ص32.

(37) بن سماية :من أصل تركي (أزمير) اسمه عبد الحليم بن علي بن عبد الرحمن بن حسن خوجة ولد بالجزائر عام 1866م وتوفي عام 1933م.تعلم مبادئ العربية على يد والده واعتنى به ورباه تربية أساسها الدين والأخلاق, كانت له فرصة ملازمة شيوخ بلاده مثل علي ابن الحاج موسى والشيخ محمد طاهر. فأخذ عن هؤلاء العربية وآدابها وكذلك

علوم الشريعة. كما تلقى الحساب على الشيخ بن حمودة كما تعلم الفروسية والموسيقى على يد الشيخ فاتح بن ابراهيم. كما تعلم العبرية على يد عناصر يهودية. عينته الإدارة الاستعمارية معلما للغة العربية. وعين أستاذا بالمدرسة الثعالبية كان ينشر مقالاته الفكرية والاجتماعية في صحيفة كوكب افريقيا (عبد المالك مرتاض،معجم الشعراء الجزائرين في القرن العشرين- دار هومة.الجزائر 207، ص101، 102.الجيلالي صاري ،بروز النخبة المثقفة الجزائرية 1850-1950 ،ترجمة عمر المعراجي ،المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر و الاشهار ، 2008 ،ص45-تركي عمارة رابح، عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر ،منشورات ANEP ،الجزائر ،ط5،ص134 ،135

(38) عبد الرحمن الجيلالي، المصدر السابق، ص200.

(39) كمال خليل المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر، التأسيس والتطور، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة 2008/2007 ، ص 149، 150.

(40) –كمال خليل، المرجع السابق، ص149 لفاروق": جريدة أسبوعية أسسها الشيخ عمر بن قدور في 28فبراير 1912م، وتعتبر أول جريدة إصلاحية تأثرت بجريدة "المنار." وكان شعارها: قلمي لسان ثلاثة بفؤادي ديني ووجداني وحب بلادي، ولم تعش سوى سنة وبضعة أشهر فقط وأغلقتها الحكومة الفرنسية كما قامت بنفي صاحبها إلى واحة الأغواط في صحراء الجزائر حيث مكث في منفاه إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم أفرج عنه. وتوجد المجموعة كاملة في المكتبة الوطنية في باريس انظر:الشيخ عبد القادر المجاوي ،الشيخ عمر بريهمات ،المرصاد في مسائل الاقتصاد ،حققه عبد الرزاق بلعباس ، مركز النشر العلمي ،جدة ،2014، ص 64.

(41) عمر راسم:ولد بالجزائر العاصمة سنة 1883م وقيل 1884م الثالث من شهر جانفي. حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ النحو والعربية، وتعلم اللغة الفرنسية وفن الرسم والخط العربي، مع مرور الوقت ظهرت عليه معالم النجابة فعيّن في مسجد سفير في سن الثانية عشر حيث أكمل تعليمه . عرف بمحاولاته الرائدة في إنشاء صحافة وطنية، فاشتغل في الطبعة الرسمية حيث كانت تطبع جريدة المبشر الناطقة باسم الحكومة الفرنسية.تميز بأفكاره الإصلاحية الثورية بما كان ينشره من مقالات نارية حادة إدراكا منه أن الإعلام هو الوحيد الذي يمكنه تنوير الرأي العام الجزائري، والذي يعمل على دحض ادعاءات الإعلام الاستعماري الذي يروج أن الجزائر لا يربطها شيء مع الحضارة. أسس العديد من الصّحف منها صحيفة الجزائر سنة 1908م وذو الفقار سنة1913م.كما كتب في صحف عربية كصحيفة " مرشدة الأمة " و"التقدم" و" المشير" والحق الوهراني" والشهاب" ولعل تجربة السّجن التي عاشها (1915م/1921م) جعلته يعيش غربة سياسية حتى وصل به الأمر إلى القول " لا يوجد عندنا شعب إطلاقا" وهذا كلام يوحي إلى اليأس التام الذي وصل إليه. بقي يعمل في صمت وتفان حتى توفي رحمه الله سنة 1959م.أنظر: محمد ناصر ، عمر راسم المصلح الثائر، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007م، ص19.- الجيلالي محمد ، بن عابد ، تقديم الأخلاق ، المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة 1927م ، ص48

(42) محمد ناصر، المرجع السابق ، ص30.

(43)نفس المرجع، ص28.

(44) نفس المرجع، ص31.

(45) إمخلاف آمال، عمر راسم، حياته ونشاطه (1884م، 1954م) ماجيستير في التاريخ جامعة وهران ،2009، 2010، ص60.

(46) عمر بن قدور: من مواليد 1886م بالأربعاء بالجزائر, كان فقيها مصلحا، تلقى تعليمه الأول في المدرسة القرآنية، التحق بالمدرسة الشرعية الفرنسية.التي أصبح فيها التعليم مزدوج اللّغة مكن من تكوين فئة ملمة بالتراث العربي الإسلامي. تربى تربية دينية مقتديا بذلك بوالده. وأصل تعليمه بالمدرسة الثعالبية حيث تلقى دروسه هناك على يد الشيخ عبد القادر المجاوي. وابن سماية, رحل إلى تونس للدراسة باللغة العربية وتخرج من الزيتونة. ظهرت أولى اهتماماته بالصّحافة في تونس وتركيا من خلال جريدتي الحاضرة التونسية , وجريدة الحضارة التركية. كتب في كل من جريدتي "الأخبار " ثم أصدر "الفاروق" 1913م، واشترك في تحرير جريدة " الصديق" سنة 1920. توفي سنة 1932م. بعد اعتزاله السياسة.

(47) سامية عبدي ، مريم بوزيان ،عمر بن قدور والقضايا المغاربية من خلال كتاباته الصّحفية (1927م-1927م) ماستر أكاديمي، جامعة المسيلة، قسم التاريخ 2017، ص43.

(48) عبد المجيد بن عدة، الخطاب النهضوي في الجزائر (1925م 1954م)، دكتوراه دولة، إشراف ناصر الدين سعيدوني, تحقيق التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة الجزائر (1425-1426هـ/2004-2005م)، ص199.

(49) سامية عبدي، المرجع السابق، ص44.

(50) عمارة حياة ، أدب الصّحافة الإصلاحية الجزائرية من عهد التأسيس إلى عهد التعددية ، رسالة دكتوراه في الأدب، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان ،(1434-1435هـ/2013-2014م)، ص122.

مصلحة الاتصالات السلكية واللاسلكية في الولاية الرابعة ومسألة اختراقها 1956–1962م.

The Telecommunications Department in the Fourth State and the issue of its penetration 1956-1962.

عيسى حمري*
جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)
a.hamri@univ-dbkm.dz

بودانة وليد
جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)
walid.boudana@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/10/23	2021/11/14	2021/../..

الملخص:

كان لمؤتمر الصومام دور إيجابي كبير بما خلّفه من تحولات كبرى على الثورة الجزائرية خاصة من الناحية التنظيمية، وبعد إعلان الطلبة الجزائريين عن مقاطعة الدراسة يوم 19 ماي 1956م، وهو ما أتاح الفرصة للثورة أن تتدعم بعناصر مثقفة، وبعدما بدأ قادة الثورة في استقطاب شريحة الطلبة. مما سمح بتكوين دفعات أعوان في سلاح الاشارة، وكانت هذه الاخيرة تحت قيادة عبد الحفيظ بوصوف وهواري بومدين، وقد جاء انشاء مصلحة الاتصالات السلكية واللاسلكية في سياق سعي الثورة إلى وضع إستراتيجية شاملة وكاملة تهدف إلى تطوير أساليب الكفاح بخلق جيش قوي يتماشى مع متطلبات الحرب الحديثة.

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية، الولاية الرابعة، الاتصالات السلكية واللاسلكية، سلاح الاشارة.

Abstract:

The Soummam Conference had a great positive role, with the major transformations it left behind on the Algerian revolution, especially in organizational terms, and after the Algerian students

*المؤلف المرسل

announced a boycott of studies on May 19, 1956 AD, which allowed the revolution to be supported by educated elements, and after the leaders of the revolution began to attract a segment of students. This allowed the formation of batches of agents in the Signal Corps, and the latter was under the leadership of Abdelhafid Boussouf and Houari Boumediene. The establishment of the Telecommunications Department came in the context of the revolution's quest to develop a comprehensive and complete strategy aimed at developing methods of struggle by creating a strong army in line with the requirements of modern warfare.

Key words: The Algerian revolution, the fourth term, telecommunications, the signal weapon.

مقدمة:

أولت قيادة ثورة التحرير أهمية بالغة لمسألة التنظيم وخصوصاً بعد انعقاد مؤتمر الصومام لكونه عنصرا أساسيا وفعالا لإنجاح الثورة ، وقد تطوّر هذا التنظيم تدريجيا بعد ذلك، و استمر إلى غاية الاستقلال. وتبرز أهمية التنظيم في كونه من المهام الأساسية التي ركز عليها قادة الثورة لتحقيق مجموعة من الأهداف، كتعبئة مختلف القدرات الوطنية المادية والبشرية، وتطبيق القرارات الصادرة عن مختلف الهيئات والمؤسسات الثورية. ولذلك تمّ خلق مصلحة الاتصالات السلكية واللاسلكية في الولاية الرابعة كغيرها من باقي الولايات للربط بين قيادات الثورة بالداخل والخارج، من أجل التخطيط والتحضير الجيّد، والمساهمة في الجاهزية القتالية لجيش التحرير، وإقحامه بقوة في ميدان المعركة.

1 – شراء التجهيزات وتكوين سلاح الإشارة:

استطاعت الثورة شراء نحو مائة جهاز متطور من طراز ANGRC9[1] عن طريق إبرام صفقة جاءت نتيجة الاتصالات التي قام بها زقار مسعود (رشيد كازة)، وشانق الريحة عبد القادر المدعو (بتشانق) بتكليف من بوصوف، ولقد مكّنت هذه الاجهزة التي تزوّدت بها الثورة من ربط الولايات الست،[2] وقد ساهم في إنشاء سلاح الاشارة بعض المجندين الجزائريين الذين أدّوا الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي سابقاً، وتلقّوا خلالها تكويناً في مجال الاشارة. وقد

بادر العقيد بوصوف باتخاذ قرار تكوين متخصصين في الاتصالات السلكية واللاسلكية، وذلك بتأسيس أول مدرسة للمواصلات، على الرغم من نقص التجهيزات الضرورية التي تحتاجها عملية التكوين والتي انطلقت في 8 أوت1956 [3].

تأسست مدرسة الاتصالات بالناظور (المنطقة الخاضعة للاستعمار الاسباني) في مزرعة صغيرة اشترتها قيادة الثورة وتم تهيئتها لأجل ذلك وتتكون من مرقد، قاعة دراسة، قاعة إطعام في الساحة، مكتب للإدارة وبعض الملاحق مثل مركز للحراسة، محطة راديو، مطبخ وغيرها. كان على رأس هذه المدرسة الرائد عمار، حيث يصفه مصطفى تونسي بالأب الحقيقي للاتصالات بجيش التحرير الوطني، وله ثلاثة مساعدين هم حساني عبد الكريم المدعو الغوطي، سدار سنوسي المدعو سي موسى، بوزيد عبد القادر المدعو سي عبو ألفت.[4]

2– التكوين في المدرسة:

بدأت المدرسة في تكوين إطارات الاتصال خاصة لغة الإشارة "المورس" والرسائل بالصوت ، وإصلاح الراديو ومن بين الاطارات ملوك محمد(صبري)، غربي محمد(بوب)، وكان عدد أفراد الدفعة 50 عنصرا، ويتم التكوين في مجال استخدام المبرقة للتمكن من الارسال وأذنان مرهفتان لتسجيل الرسائل وكيفية تشفير وفك الشفرة لرسائل جبهة التحرير، وكانت هذه المدرسة تسهر على نشر الحب والاخوة بين الاطارات، ويمتد التكوين 45 يوما في سلاح الاشارة، أما الجانب العسكري فاقتصر على تركيب وتفكيك السلاح فقط. وتم توزيع أجهزة الراديوANGRC9، حيث كان هذا العتاد من صنع شركة تيلي فانكان TELE FUNKEN ، وبترخيص أمريكي، إضافة إلى ألبسة عسكرية وبنادق، وقبل إرسالهم إلى الداخل التقوا هواري بومدين وشرح لهم أهمية الكفاح المسلح، حيث شكل من الدفعة 15 فريقا من 50 متربصا، إثنين لتغطية قسم كبير من الولاية الخامسة، فريقان للولاية الرابعة، وفريق

واحد للولاية الثالثة، إجتاز حوالي 30 عنصرا، واستشهد منهم 21 وأسر 8 وعاد منهم عامل واحد في الولاية الرابعة إلى المغرب اسمه خيثر بلقاسم[5].

3 – انطلاق عمل محطة الاتصال بالولاية الرابعة:

تميّزت أجهزة الاتصال بوزنها الثقيل لكنّها كانت ذات فعالية فائقة إذ مكّنت من إجراء اتصالات يصل مداها إلى حوالي 5000 كلم عندما تكون الظروف ملائمة، وقد وصلت الدفعة الاولى التي شكّلت أول محطة في شهر سبتمبر 1957م، والتي أسسها بلال محمد المدعو شعيب، وبلباي محمد المدعو خالد، وكان يشرف على رأس كل محطة مسؤول يتميز بكونه الوحيد الذي يستطيع أن يتصل عن طريق تقنية المورس le Morse، يساعده في ذلك مساعد أو مساعدين، أما بلال فقد كان فريقه في محطة الونشريس أي المنطقة الثالثة [6].

أما الدفعة الثانية فوصلت في 07 جانفي 1958 إلى الولاية الرابعة، في شكل محطتين انضموا إلى محطة الاتصالات حيث يوجد الثنائي شعيب وخالد، وكان مقرها في غابة كثيفة يصعب على طيران العدو رصد مقرها، وفيها أيضا توجد مقر عيادة تمريض تحت قيادة الدكتور بكير، وكان يتولى حراسة المحطة حوالي 15 جندياً، وفي لحظة وصول الدفعة الثانية ربط كل من شعيب وبلال الاتصال بجهاز الراديو مع مركز القيادة بالمغرب بوصول الدفعة الثانية [7].

وبعد أيام معدودة من وصول هذه الدفعة شهد فريق الاتصالات على كمين في الونشريس بالقرب من لامرتين (الكريمية)، وكان من نتائجه أسر 20 جندياً فرنسياً، وعلى جناح السرعة تم إرسال حصيلة المعركة في نفس اليوم في 20 جانفي 1958م، وكانت الرسالة كالأتي: هنا ABV نصبت الكتيبة المتواجدة بلامارتين كمينا لسرية فرنسية على الساعة السادسة، على بعد عشر كيلومترات من المدينة كانت الحصيلة كالاتي: 100 قتيل في صفوف

العدو و20 أسيرا. قف. تم استرجاع مئات الاسلحة والكثير من الذخائر. قف. يحيا جيش التحرير الوطني. قف. سنوافيكم بتوصيات أخرى في وقت لاحق. قف. وانتهى".[8]

وقد أدرجت الولاية الرابعة ضمن شبكة الاتصالات للغرب في وجدة، واتي كانت تضم أيضا الولاية الخامسة والسادسة، وتعد هذه المصلحة بحق جسر للتواصل بين مراكز القيادة ما بين الولايات ومع مركز القيادة في الخارج، أما محليا فلا تتم الاتصالات إلا نادرا ويعود ذلك إلى قلة التقنيين المتخصصين في الاصلاح والصيانة. وحرصا على حماية الاتصالات ومراكز القيادة من عمليات الاختراق لها، وكانت محطات الاتصال بالراديو تُقام في أماكن بعيدة عن مركز القيادة وكانت الاتصالات تقتصر على وقت الليل عموما [9].

تنصب الأجهزة على مستوى المرتفعات بالجبال ، و عندما تقترب الطائرات يتوقف الإرسال و رغم ذلك إلا أن أجهزة التصنت الفرنسية كانت تنجح أحيانا في التحديد التقريبي لمراكز الاتصال، وبعد مدة قصيرة تشن عمليات التمشيط على نطاق واسع، مستهدفة الأجهزة و طاقم التشغيل. إضافة إلى أنها كانت تنجح أحيانا في اختراق شبكة الاتصالات و التشويش عليها كما حدث في قضية سي صالح.[10]

بدأ سي امحمد بتحضير محطتي راديو بقيادة شعيب في غرب الولاية (الونشريس) و تونسي مصطفى في شرقها و لم تكن توجد شبكة داخلية يمكن أن تغطي المناطق الأربع، كما حُوّلت المحطة الأولى إلى الونشريس والثانية إلى المنطقة الأولى باليسترو(الأخضرية) و ظلت الولاية الرابعة تستعمل المحطتين و تربط الاتصالات مع مركز القيادة بوجدة أما المحطة الثالثة فتوقف تشغيلها لسبب وفاة برحو خدير في جوان . 1958[11]

4 – إشكالية الاختراق الفرنسي لمحطة الاتصال:

راهنت المصالح الفرنسية على تفكيك شبكة الاتصالات وكسر نظامها من الداخل عن طريق إدماج عناصر من المكتب الخامس، وتفجير أجهزة الارسال بواسطة بطاريات ملغمة مرسلة من طرف جهاز التوثيق الخارجي ومكافحة التجسس، على شكل طرود مفخخة، والدخول في الاتصالات بين المحطات وإرسال رسائل كاذبة وابتكار أساليب التخريب بقيادة الجنرال هنري جاكان والنقيب بول ليجي، فتم تأسيس مدرسة لتكوين عملاء الجوسسة المضادة بثكنة في حسين داي وتم تجنيد عملاء لذلك، كان التعليم التقني بمدرسة حسين داي لتكوين عملاء يتلقون دروس خاصة باستعمال أجهزة ANGRC9 : الابراق وقراءة الاصوات، مثل أجهزة جيش التحرير.[12]

كانت المصالح الفرنسية تملك قاعدة للتجسس على أجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية ببن عكنون تسمى تجمع مراقبة الراديو، يتكون من 16 جهاز استقبال من نوع سيمانس صنع ألماني بتعداد يبلغ من 110 إلى 120 عون، مقسمون إلى 4 أفواج تحت مسؤولية مدير جهوي يساعده رئيس المركز وأربعة رؤساء أفواج، وتمتلك هذه القاعدة آلات متطورة لتفكيك الشفرة والاتصالات ورموز الرسائل الخاصة بجبهة التحرير الوطني، إضافة إلى سيارات خاصة وطائرات وسفن بحرية تستعمل من أجل استقبال المعلومات، وهي تحوز على وسائل لقياس الزوايا حتى تتمكن من تحديد مصدر بث أجهزة الاتصالات الخاصة بجيش التحرير،[13] كان حوالي 20 متربصا في مركز حسين داي يتلقون دروسهم المقسمة إلى فرعين: التواصل اللاسلكي بواسطة الاجهزة، واستعمال الشفرة بواسطة وسائل تشفير مماثلة لتلك التي يستعملها جيش التحرير.[14]

إلتقطت المصالح الفرنسية في مركز التصنت بن عكنون ترددات أجهزة الاتصالات الخاصة بالولاية الرابعة وتبيّن لهم بأن الرسالة الملتقطة ليست صادرة عن المحطة التي يقودها بلال

وتم التوصل إلى هذه الحقيقة لسببين هما: أن إشارات المورس التي أتت من الرسالة الملتقطة مختلفة عن تلك المعهودة على شبكة الولاية الرابعة، أما السبب الثاني هو أن جهاز الارسال الذي أستعمل أقوى بكثير من الجهاز السابق، وأن معدات المحطة الجديدة هي أجهزة من نوع ANGRC9 ، وهذا دليل على اختراق المصالح الفرنسية للاتصالات الخاصة بالولاية الرابعة، وتم مسح نطاق الترددات التي التقطت في الرسالة وإرسال نسخة منها إلى ثكنة حسين داي، وحسب ما تم التقاطه فإن المصالح الفرنسية استطاعت تحديد مواقع المحطات الخاصة بالاتصالات اللاسلكية للولاية الرابعة، التي عهدت في تنقلاتها باستمرار مع رؤساء المناطق، وتمكنت المصالح الفرنسية من معرفة شروط العناية الفائقة التي أولاها العقيد بوقرة بأجهزة الاتصالات كتأمين الاطارات والمعدات، ولكنها تمكنت من معرفة النقص الفادح في صيانة هذه الاجهزة.

واستطاعت المخابرات الفرنسية أن تخترق جهاز الاتصالات اللاسلكية من خلال إرسال عميل على شكل مصلح للراديو من العاصمة، و الذي أدمج في الجهاز و لكن لتصرفاته المثيرة للشبهة من خلال رصد حركته في تصفحه و اطلاعه على أوراق مسودة لرسائل مزيفة علما بأنه تم إعطائه أمر بعدم لمس أي شيء يتعلق بمحتوى الرسائل المبعوثة و المتلقاة،[15] وعلى هذا عملت المصالح الفرنسية على القضاء على محطات الاتصالات اللاسلكية بواسطة وسائل غير مباشرة، وبعد معرفتها بوصول محطة جديدة تعتمد على أجهزة من طراز ANGRC9، إضافة إلى معرفة طريقة الارسال والاشارات التي يستعملها جيش التحرير، بهدف اختراقها من الداخل كأولوية قبل تحطيمها.

كان هذا العميل يسمى عبد القادر، كان موهوبا بشكل فائق وعمره أنذاك 20سنة، ترك هذا الاخير ثانوية بن عكنون تبعا للإضراب الذي شنه طلبة الثانويات سنة 1956،

وبعدها بقي عاطلا عن فعل أي شيء ولم يتمكن من الالتحاق بعائلته بسبب حصار المظليين لمدينة الجزائر، في هذه الظروف إلتقى في سبتمبر 1957 طالب سابق يدعى بوقندورة، تم توقيفه من طرف المظليين وأصبح يعمل لصالحهم، واستطاعت المصالح الخاصة جعل هذا الاخير يعمل لصالحهم باستدراج عناصر وطلبة يعملون لصالح الثورة، واستطاع بوقندورة إقناع عبدالقادر بالعمل لصالح الجيش الفرنسي، أنهى عبد القادر تربصه وأرسل في مهمة إلى الولاية الرابعة.[16]

أرسل عبد القادر في هذه المهمة تحت مراقبة سرية للمصالح الفرنسية مسلحا بمسدس في شهر أوت 1958، وعندما رآه سكان المنطقة إقتادوه إلى مقر قيادة المنطقة وعندما سألوه قال لهم "إسمي عبد القادر بن أحمد تم تجنيدي بالقوة من أجل إبرائي حسبهم من الخدمة العسكرية، اتخذت قرار الفرار من صفوفهم ووضع نفسي في خدمة جيش التحرير الوطني، أحضرت معي سلاحي الشخصي ها هو ذا مسدس". وعندما سأل عن اختصاصه أثناء الخدمة في الجيش الفرنسي، أجاب بأنه كان في الاتصالات، وعلى إثرها تم إيصاله إلى تونسي مشغل الاتصالات غير أن العميل عبد القادر صرح بأنه ليس لديه معرفة بالاتصال اللاسلكي وادعى بأنه مصلح، ثم سأله تونسي على أي نوع من الاجهزة يمكنك أن تعمل، فرد عليه بأنه تخصص في إصلاح وصيانة أجهزة ANGRC9، ثم رد عليه تونسي لكن لا يوجد هذا الجهاز فقط، هل بإمكانك إصلاح أجهزة ART13[17] ؟، ثم رد عبد القادر لم أكن أعلم أن جيش التحرير يمتلك هذا النوع من العتاد، رد تونسي من أعلمك أن جيش التحرير يفتقد لهذه الاجهزة؟ وهذا ما جعل تونسي يحس بتناقض في أقواله.[18]

بدأت الشكوك تحوم حول عبد القادر الذي كان يختفي عادة وقت الفجر ثم يلتحق بفريق الاتصالات، إذ أنه كان يجد في كل مرة مبرر بادعائه كونه عندما اجتاز طريق بالمقاطعة

الادارية والانتشار السريع لجيش التحرير في الغابات مما جعله يضل الطريق، ومرة أخرى ادعى بأنه توقف من أجل قضاء حاجة، ولكن الحقيقة كانت مختلفة تماما كان عبد القادر يبتعد عن المحطة ويسلك الدروب وسط الغابات الكثيفة بالمنطقة للالتقاء بضابط الخلية التي شكلها النقيب ليجي، لكي يعطيه معلومات مكتوبة تتعلق بمحطة الاتصالات اللاسلكية، وهذا ما جعل تونسي يعرب لسي امحمد بوقرة حول تصرفات عبد القادر، وبعد متابعة تحركاته ألقي عليه القبض وتم استجوابه وخلاله اعترف عبد القادر بأنه مكلّف من طرف جهاز التوثيق الخارجي ومكافحة الجوسسة، كأول عنصر في محطة عملية تقوض شبكات الولاية، واعترف بأن دوره يتمثل في مراسلة جهاز الجوسسة ليصبح فيما بعد حصان طروادة داخل نظام الاتصالات بجيش التحرير.[19]

حيث كشف لهم بأنه عميل فرنسي تلقى تكوينه بثكنة في حسين داي و هدفه تخريب الاتصالات و ذلك بتعطيل جهاز الراديو و أختبر في مجال الإصلاح خاصة و أنه أفصح عن إصلاح سوى أجهزة (ANGRCQ) أي أجهزة الإرسال و الاستقبال التي يستعملها جيش التحرير وتم تصفيته بعد محاكمة أقر فيها بجرمه.[20]

وكانت هناك عدة محاولات أخرى لاختراق هذه المصالح في المنطقة خلال بداية سنة 1958م، وتم إلقاء القبض على جاسوس يعمل لصالح المخابرات الفرنسية كان يعمل كعون مكلف بتوجيه وثائق جديدة للشفرة بمنطقة الشلف، وبعد عملية الاستنطاق أقر بأنه يعمل لصالح فرنسا وكان مكلف بنسخ الوثائق الخاصة بالشفرة وتسليمها لجاسوس آخر مكلف بتوجيه الوثائق عبر مركز القيادة للولاية الرابعة، وعندما وصل هذا الاخير كشف أمره وأصبحت الوثائق التي كان ينتظرها قائد شبكة الاتصالات اللاسلكية لهذه الولاية محمد بلال غير صالحة للاستعمال.[21]

يؤكد مصطفى تونسي بأن شبكة الاتصالات تم اختراقها من قبل المصالح الفرنسية و تمكنت من اختراق قيادة الاتصالات بالمغرب لعدة قرائن و دلائل و حجج هي: لم تم أسر عبد المجيد فصلة رفيقه في الدفعة في نهاية 1957م، حيث أصيب و أسر و صرح للأجهزة الفرنسية بأنه محافظ سياسي[22]، بعد استجوابه للمرة الثانية عرضت عليه الأجهزة الفرنسية و ثيقة من مقر قيادة الاتصالات له و قع عليها حصوله معدات الراديو و يضيف تونسي بأنه وقع له فخ لم يتداركه إلا بعد الاستقلال خلال العمليات العسكرية (شال) 1959م على الولاية الرابعة من خلال قيامه بإرسال بالراديو رسالة مشفرة مما جعله يعتقد بأنها مرسلة من مقر قيادة الاتصالات بالمغرب، وكان محتوى الرسالة " شبكة خونة داخل هياكل وحدات الولاية القائمة كالآتي حيث تم ذكر أسماء 12 مسؤول مع ذكر أماكن تعيينهم" و بدوره أرسلها إلى مقر الولاية للعقيد سي امحمد حيث أمر هذا الأخير بإيقافهم و تصفيتهم و ما يؤكد طرح مصطفى التونسي هو في كونه إلتقى بعد الاستقلال مسؤولي قيادة الاتصالات بالمغرب و تأكد بأن الرسالة بهذا المحتوى لم ترسل إلى الولاية الرابعة فضلا عن ذلك الإمكانيات التي كانت تتحضر عليها الثورة في المغرب لم تكن لتتعرف على هوية الثوار فضلا عن معرفة أماكن تعيينهم لذا فإن إرسال هذه الرسائل المزيفة قد تم من طرف أجهزة المخابرات الفرنسية [23].

يؤكد تقية بدوره بأن المصالح الفرنسية من خلال مناوراتها في إحاكة الدسائس و المؤامرات دون أن يكون لجيش التحرير أدنى شك في مصدرها و كثيرا ما اخترقت المصالح الفرنسية الاتصالات من خلال الدخول على الخط فيقدمون أنفسهم على أنهم من عناصر (جيش التحرير) و يبعثون رسائل مفخخة و بهذه الكيفية تكون مصالح الاتصالات لقمة صائغة في متناول المصالح الفرنسية[24]، و في كثير من المرات يتم ربط اتصالات بالقيادة بالخارج وعلى إثره بدأت الطائرات الفرنسية تطوق المكان.[25]

وخلال إجتماع غلابة في ماي 1958م يشير مصطفى تونسي حول حادثة اكتشاف المصالح الفرنسية للاتصالات عندما طلب العقيد سي امحمد من تونسي وشعيب الاتصال ببوصوف بالرغم من اعتراض فريق الاتصال إلا أن العقيد أصر على الاتصال وخلال المحادثات تم التطرق للمشاكل التي تعاني منها الولاية الرابعة من: أمور متعلقة باللوجستيك، التسليح، الاطارات، تكوين وحدات قتالية جديدة في الخارج وغيرها، وفي تلك الاثناء بدأت طائرات B26، تطوق المكان وهو ما يشير إلى إمكانية اختراق أجهزة الاتصالات.[26]

5 – قضية شعيب:

إتهم بلال محمد المدعو شعيب بالتقصير في أداء مهامه مما أدى بسي امحمد إلى إصدار أمر بتوقيفه و إلقاء القبض عليه و على إثر عملية عسكرية تمشيطية للمنطقة قامت بها القوات الفرنسية أوقفته ثم قامت بتحريره أما مساعده بلباي المدعو خالد فقد أعدم [27]، وفي منتصف مارس 1959م صرحت إحدى الجرائد الفرنسية بوضع صورة (شعيب) بلال محمد و أحد المسمين يدعى معمر قائد قطاع في ناحية ثنية الحد، كان شعيب قد أسر ثم أطلق سراحه مما ولد صدمة كبيرة لدى أوساط الثوار و عندما وصل مصطفى التونسي الخبر إلتحق بمقر الولاية إلى سي امحمد بوقرة.[28]

عندما وصل تونسي وجد سي امحمد رفقة محمد بونعامة و بعض إطارات المنطقة الثالثة و لما أخرج الجريدة قال له سي امحمد شعيب قد خان و كان يتواصل مع العدو عن طريق الراديو، و على إثره أمر سي امحمد بتوقيف جهاز الاتصالات مؤقتا و أمر تونسي بإرسال رسالة إلى القيادة يعلمهم بإيقاف الاتصالات، ثم وضع عبد القادر أودفال لوحده في محطة الاتصالات بين المنطقة الثالثة و الرابعة و في حادث غريب يرويه تونسي بأن شعيب نفسه أسر له بأن يتوسط له سي امحمد ليرخص له بالعودة إلى المغرب، ويواصل تونسي بأنه إلتقى شعيب

بعد الاستقلال و صرح له بأن سي امحمد قد خدع فيم يتعلق بقضيته و بأنه لم يقصر أبدا و بالفعل تم إعادة له الاعتبار من طرف قدماء المالغ.[29]

يقول مصطفى تونسي" أعتقد أن السؤال يبقى مطروحا حتى اليوم كانت للسي امحمد دوافعه الخاصة أن شك في ولاء بلال و بلباي غير أنني و بصفتي مهني و مستخدم لجهاز راديو من هذا المعيار المستند على شكل فحسب و ليس على الصوت فإنه من الصعب بما كان أن نعرف مع من يتصل مسؤول المحطة اللهم إلا إذا كان هناك تسرّب من طرف القوات الفرنسية ليدعم ذلك ".[30]

يؤكد الضابط نجادي أن الامر خديعة فرنسية كونه ضابط مسؤول عن اليقظة والاستخبارات المضادة في الغرب والذي كلفت من قيادة الاركان باستنطاق بلال محمد الذي إلتحق بوجدة وكتابة تقرير مفصل في ذلك، وقص عليه شعيب قضيته التي بدأت بإيقافه والزج به في بناية مجاورة، وكان يظن أن الامر كونه لعبة لا أكثر، فتركهم يفعلون ذلك بطيبة خاطر وبمرور الوقت أصبح شعيب يصرخ ويقول أن السخرية طالت أكثر، اندهش عندما قيل له بأنه خائن متسرب وأن المتواطئين معه قد أخبروا عنه، وعند استنطاقه طلب منه خاصة إعطاء أسماء الخونة الآخرين، وأمام إنكاره أخضعوه للتعذيب المسمى بالمرواحية.[31]

خلال إعترافه حكم عليه بالإعدام، وكان من المفروض أن ينفذ عليه الاعدام وإذا بعملية تمشيط واسعة النطاق من طرف الجيش الفرنسي في المنطقة، فتم إلقاء القبض عليه واستعمل كمترجم مما جعله يكسب ثقة الضابط الامر الذي سمح له بربط الاتصال مع أبيه الذي كان يقيم في وجدة، وهذا الاخير أخبر القيادة في المغرب التي تكفلت بقضيته من خلال صنع جواز سفر مغربي مزور، وتم جلبه إلى المغرب بوجدة.[32]

أما رأي صايكي حول هذا الجهاز كمسؤول منطقة فيقول بأنه" لم يكن للعمل اللاسلكي دور فعال في تسيير نظامنا الثوري بل كان ضره أكثر من نفعه و كثيرا ما سبب لنا هذا المجال استهداف القوات الفرنسية إلى موقع تواجدنا فلقد حدث عدة مرات أن انكشف أمر مركز الناحية (PC) مما أدى إلى تخريبه، ولا بأس أن نذكر أن سبب استشهاد اسي محمد بونعامة هو استعمال الجهاز اللاسلكي و من جهة أخرى كنا نستعمله عند اتصالنا بالحكومة المؤقتة و هيئة الأركان العامة و للأسف كنا لا نتحصل على أي رد منهما يشفي الغليل لا سيما في حالات الطوارئ و النوازل و كان إذ اجتهد مسؤول الولاية في أخذ مبادرة ما رفض منهم ذلك و قوبلو للأسف بألوان من اللوم و العتاب".[33]

وبعد استشهاد أوادفل عبد القادر في 08 أوت 1961م توقفت مصلحة الاتصالات السلكية و اللاسلكية في الولاية الرابعة،[34] ومن بين شهداء هذا الجهاز بن حرو أحمد استشهد في 15 جوان 1958م، بن دراع دريس استشهد في 11 ديسمبر 1960م، بوعلي عصمت استشهد في 19 أفريل 1959م في مقر قيادة المنطقة الثالثة للولاية الرابعة، بلباي أحمد 20 أكتوبر 1960م، سعدي عبد الله،[35] والسعيد بن عبد الله استشهد في سنة 1961م، وحروني بوزيان.[36]وغيرهم.

خاتمة:

ساهمت مصلحة الاتصالات السلكية واللاسلكية في الولاية الرابعة بخدماتها الجليلة في خدمة الثورة و لهذا أولت جبهة وجيش التحرير اهتماماً بالغ الأهمية لها، لضمان وصول الأخبار والأوامر العسكرية المختلفة في وقتها المناسب وفي ظروف حسنة، حيث أُدرجت الولاية الرابعة ضمن شبكة الاتصالات للغرب في وجدة، وكانت تُعد هذه المصلحة بحق جسر للتواصل بين مراكز القيادة ما بين الولايات ومع مركز القيادة في الخارج.

لم تسلم مصلحة الاتصالات السلكية واللاسلكية التابعة للثورة بالولاية الرابعة كغيرها من باقي الولايات من المصالح الفرنسية المضادة من خلال مناوراتها في إحاكة الدسائس و المؤامرات، وكثيراً ما اخترقت المصالح الفرنسية الاتصالات وتمّ الدخول على الخط فيقدمون أنفسهم على أنهم من عناصر (جيش التحرير) و يبعثون رسائل مفخخة، و بهذه الكيفية تكون مصالح الاتصالات لقمة صائغة في متناول المصالح الفرنسية المضادة.

الهوامش:

[1] – أجهزة إرسال وإستقبال مصنوعة من طرف شركة سيامنس، موجهة للإستعمال من قبل حلف الأطلسي، وجدت بكل من محطات الناظور، طرابلس، وغار الدماء، الكاف، قاعدة العربي بن مهيدي.

[2] – مصطفى بن عمر، **الطريق الشاق إلى الحرية**، دار هومة، الجزائر، 2007، ص198.

[3] – بية نجاة، "استراتيجية الثورة في تنظيم الاتصالات السلكية واللاسلكية" مجلة **المصادر**، السداسي الثاني، ع10، 2004، ص24.

[4] – مصطفى تونسي، **من تاريخ الولاية الرابعة، سيرة أحد الناجين**، ترجمة أوذاينية خليل، دار القصبة، الجزائر، 2012، ص 36.

[5] – **نفسه**، ص 37.

[6] – محمد صايكي، **شهادة ثائر من قلب الجزائر**، تحرير محفوظ اليزيدي، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 242.

[7] – مصطفى تونسي، **مصدر سابق**، ص 47.

[8] – عبد الكريم حساني، **الحرب الخفية، الشبكات الاولى**، ترجمة أوذاينية خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص234، 235.

[9] – محمد تقية، **حرب التحرير في الولاية الرابعة**، ترجمة بشير بولفراق، دار القصبة، الجزائر، 2012، ص 89.

[10] – **نفسه**، ص90.

[11] – محمد صايكي، **مصدر سابق**، ص244.

[12] – عبد الكريم حساني، **مصد سابق**، ص219، 220.

[13] – المالق، **عبد الحفيظ بوصوف أو الاستراتيجية في خدمة الثورة**، ترجمة قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014، ص56.

[14] – عبد الكريم حساني، **مصدر سابق**، ص236.

[15] – مصطفى تونسي، **مصدر سابق**، ص66.

[16] – عبد الكريم حساني، **مصدر سابق،** ص220.

[17] – معدات من صنع أمريكي موجهة للاستعمال من قبل قوات الحلف الاطلسي، وجدت بكل من محطتي وجدة وتطوان الخاصة بجهاز الاتصالات السلكية واللاسلكية للثورة.

[18] – عبد الكريم حساني، **مصدر سابق** ، ص239، 240.

[19] – **نفسه،** ص241.

[20] – مصطفى تونسي، **مصدر سابق،** ص73.

[21] - Le MALG, **Abdelhafidh boussouf ou la stratégie au service de la révolution**, Gharnata éditio, Alger 2014,p 57.

[22] – مصطفى تونسي، **مصدر نفسه،** ص86.

[23] – **نفسه،** ص88،87.

[24] – محمد تقية، **مصدر سابق،** ص91.

[25] – مصطفى تونسي، **مصدر سابق،** ص65.

[26] – **نفسه،** ص64،65.

[27] – محمد صايكي، **مصدر سابق،** ص244.

[28] – مصطفى تونسي، **مصدر سابق،** ص95.

[29] – **نفسه،** ص96، 98، 99.

[30] – محمد صايكي، **مصدر سابق،** ص245.

[31] – طريقة التعذيب تم استعمالها أثناء الاستنطاق التي شهدتها الولاية الرابعة، وهي يتم ربط الايدي وراء الظهر ويعلق المتهم في شجرة بحيث يكون بطنه عاريا ومقوسا، ثم تشعل خصلات من الحلفاء تحته فيحترق ذلك الجزء من جسده، وكانت الاوجاع لا تحتمل و اثنائها يطرح الاسئلة على المتهم، وهكذا فإنه يبدأ في إعطاء كل الاسماء التي تمر بذهنه. أنظر نجادي محمد مقران، **شهادة ضابط من المصالح السرية للثورة الجزائرية،** ترجمة محمد المعراجي، غرناطة، الجزائر، 2013، ص209، 210، 211.

[32] – **نفسه،** ص211.

[33] – مصطفى تونسي، **مصدر سابق،** ص246.

[34] – محمد صايكي، **مصدر سابق،** ص244.

[35] – عبد الكريم حساني، **مصدر سابق،** ص27، 28.

[36] – المالق، **مصدر سابق،** ص201، 207.

التنظيم الصحي بالولاية الرابعة التاريخية
(المنطقة الثانية أنموذجا 1956–1962)

Health regulation in the historic fourth state The second region as a model 1956-1962

د/ نعلمان نادية

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة– الجزائر

naalamenenadia@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021/10/23	2021/11/08	2021/../..

الملخص:

اعتبر النظام الصحي في المنطقة الثانية من الولاية لرابعة من بين القطاعات المهمة جدا ابان الثورة التحريرية ، خاصة بعد تطور الكفاح وما نتج عنه من جروح واصابات في صفوف جيش التحرير الوطني بكل تشكيلاته (المدنية و العسكرية) أوجب على جبهة التحرير الوطني ايجاد نظام محكم لتسيير هذا القطاع و للحفاظ قدر الامكان على أوراح المجاهدين و ذلك لضمان سيرورة النشاط المسلح .

الكلمات المفتاحية: الولاية لرابعة، المنطقة الثانية، النظام الصحي، جروح.

Abstract:

The health system was considered among the very important sectors during the liberation revolution, especially after the development of the struggle and the resulting injuries in the ranks of the National Liberation Army in all its formations (civilian and military). Mujahideen in order to ensure the process of armed activity.

Key words: Fourth state, second zone, health system, Wounds.

مقدمة:

اعتبر النظام الصحي في المنطقة الثانية من الولاية لرابعة من بين القطاعات المهمة جدا ابان الثورة التحريرية، خاصة بعد تطور الكفاح وما نتج عنه من جروح واصابات في صفوف جيش التحرير الوطني بكل تشكيلاته (المدنية و العسكرية) أوجب على جبهة التحرير الوطني ايجاد نظام محكم لتسيير هذا القطاع و للحفاظ قدر الامكان على أوراح المجاهدين و ذلك لضمان سيرورة النشاط المسلح .

1 التنظيم الصحي في الولاية الرابعة:

كان المجاهدون قبل مؤتمر الصومام يستنجدون بأطباء وممرضين جزائريين يأتون في الخفاء من العاصمة ومدن أخرى ليعالجوا الجرحى وبعد الإنتهاء من العملية يعودون مباشرة الى مراكز عملهم .(1) وفي هذه الفترة لم تخصص الجبهة أي مصلحة أو قطاع خاص بهذه العملية ولكن مع التطور والانتشار الذي عرفته الثورة بفضل وحدات جيش التحرير الوطني بدأت الخسائر البشرية في صفوف الجيش وحتى المدنيين في القرى والمداشر الذين يقدمون العون للثورة أصبحت الحاجة تتطلب إنشاء مصلحة صحية، وفي ربيع 1956 شكلت أول شبكة صحية في الولاية الرابعة في العاصمة تتولى نقل المجاهدين المصابين والمرضى الى داخل المدينة حيث كانوا يعالجون في بعض العيادات و حتى المستشفيات بمساعدة أطباء جزائريين وبعض الأطباء الفرنسيين الذين كانوا يتعاطفون مع المرضى و يتمتعون بالروح الإنسانية .

وبعد مؤتمر الصومام تم تنظيم المصالح الصحية ووضعت هيكلتها ضمن التنظيم العام للثورة (2) وبذلك شرع في تنظيم سلسلة من الدروس لتكوين مسعفين وممرضين بالعاصمة وذلك من بين تلاميذ وتلميذات الثانوية تحت مسؤولية الحكيمين محمد صغير نقاش ونفيسة حمود وبمساعدة طلبة من كلية الطب، الذين أوكلت لهم مهمة الاشراف على المراكز الطبية وكذا تكوين الممرضين والقيام بالعمليات الجراحية للمجاهدين الذين يتعرضون لإصابات خطيرة أثناء العمليات العسكرية.(3) وبحكم ظروف الحرب كان هذا الجهاز يلازم جيش التحرير الوطني في

الجبال وأثناء العمليات ومن أجل ضمان الوقاية من الأمراض المعدية، لجأ الى تلقيح الجند و حتى سكان الارياف ، بالاضافة الى إجراء فحوصات لضمان عافيتهم.(4)

ولأهمية القطاع كما ذكرنا سابقا، فقد وضع تحت مسؤولية قائد الولاية مباشرة باعتباره مسؤولا سياسيا عسكريا إلى جانب مصلحة الدعاية والاعلام ومصلحة الاتصالات، وقد كلف المحافظ السياسي بجمع الأدوية ووسائل الجراحة إضافة إلى تكليفه بوظائف عدة كالدعاية للثورة في الأوساط الشعبية ، التكفل بمساعدة أسر الشهداء وعائلات الأسرى والتموين بالغذاء واللباس.(5) كما خصص المؤتمر لإطارات المصالح الصحية رواتب بناء على الرتب العسكرية وذلك على النحو التالي:

- الأطباء راتبهم مثل الضابط الأول: 4500 فرنك فرنسي قديم.
- مساعدوا الأطباء مثل الملازم : 2500 فرنك فرنسي قديم.
- الممرضون والممرضات مثل العريف:1500 فرنك فرنسي قديم.(6)

ولخصوصية وحساسية جهاز الصحة أوكلت المهمة الى مسؤول الصحة على جميع المستويات:

- **القسم**: فقد أوكلت المهمة للممرض برتبة عريف، بمساعدة ممرضان أو ممرضتان حسب الامكانيات البشرية المتوفرة منهم واحد أو أكثر يلازم تحركات الكتيبة، وكلما استعصت حالة مريض أو جريح يحول على **الناحية** ويتولى التمريض على مستوى الناحية ممرض رئيسي برتبة مرشح بمساعدة طاقم من الممرضين والممرضات برتب أقل.

- **أما على مستوى المنطقة**: وهي أعلى الهرم الصحي حيث توجد بها امكانيات مادية وبشرية أفضل، يديرها طبيب وهي بمثابة عيادة مركزية يتواجد بها كل الجرحى أصحاب الجروح والإصابات الخطيرة المستعصية حالتهم على طواقم عيادات النواحي.

- **أما الولاية** وهي تسهر على تتبع تطور الأوضاع الصحية والنقائص من وسائل وهياكل بالإضافة الى التموين بادوية واغذية و معدات طبية بسيطة و موارد بشرية من أطباء وممرضين،

واتخاذ الإجراءات والقرارات في عدة حالات حرجة و إيجاد وخلق حلول على مستواها بعد تلقيها تقارير مفصلة التي ترفع إليها كل ثلاثة أشهر.

وهذا المخطط يبين لنا تنظيم الهياكل الصحية ل جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني:

- الولاية: مسؤول صحي ولائي R.S.W
- المنطقة: مسؤول صحي للمنطقة R.S.M
- الناحية: مسؤول صحي للناحية R.S.R
- القسم: مسؤول صحي للقسم R.S.S.[7]

2- مراكز الصحة في المنطقة:

وفي نفس السياق فقد أكدت قرارات مؤتمر الصومام على الهيكلة الجيدة لقطاع الصحة حيث أصبح لكل منطقة مركزها الصحي وطبيبها الخاص لكل ناحية و كتيبة ممرضها بالإضافة الى تقديم إسعافات إلى المواطنين نذكر على سبيل المثال: المركز الصحي الذي كان في المنطقة الناحية الثانية المسمى : بهلي الذي سير من قبل مجموعة من المجاهدين وكان يشرف على المنطقة الثانية الطبيب إسماعيل محفوظ دهلوك[8]السنة الخامسة طب. ولإشتداد الثورة في مرحلة 1959-1962 أبح النظام المعمول به صعب وعسير خاصة بعدما اكتسحت قوات العدو الجبال وأقام بها مراكز ثابتة وأقام بهذه المناطق والمناطق المحاذية لها بما يسمى بالمناطق المحرمة فتقلص عدد المراكز الصحية ولظروف أمنية أصبحت هذه المراكز متنقلة ولا تمكث في مكان واحد مدة طويلة مثلا:

- المركز المتنقل في أولاد بوعشرة .
- المركز المتنقل بالفورنة .
- مراكز التكوين الشبه طبي.[9]

وللتأقلم مع هذه الظروف الصعبة وضعت المراكز في الأماكن الجبلية ذات الغطاء النباتي الكثيف وأحيط بالتدابير التالية:

- إنشاء المراكز الصحية في الأماكن القريبة من منابع المياه غير المقيدة في الخرائط الفرنسية لتفادي ولو نسبيا خطر مداهمة العدو للمراكز
- تخصيص فوج مسلح لحراسة كل مصحة، حرصا على سلامة الجرحى والطاقم الصحي.[10]
- إنشاء مركز للفرز يقع بعيدا عن المركز الصحي يتم فيه فرز ذوي الجروح الخفيفة الذين لا تتطلب حالتهم الصحية المكوث في المركز تجنبا لإكتشاف عملية نقلهم وأيضا كاحتياط لعدم كشف المركز.
- إقامة شبه مستودعات للمؤن والأدوية.
- إختيار أماكن مناسبة عبارة عن مخابئ لإيواء الجرحى في حالة مداهمة أو قصف مدفعي جوي.
- وسعت جهود جيش التحرير الوطني إلى إحاطة المراكز الصحية بعمليات وقائية تتمثل في تجنب جيش التحرير الوطني أي نشاط عسكري بالقرب من هذه المراكز حتى تستفيد من فترات الهدوء النسبي لأن أي نشاط يصدر من جيش التحرير الوطني يدفع بالجيش الفرنسي بالقيام بعمليات تمشيط في الأماكن التي توجد بها المراكز هذا ما جعل الأمر أكثر مشقة وتعقيدا.[11]

وفيما يتعلق بالطريقة المتبعة لبناء هذه المراكز فتتمثل في حفر غار مدعم بجذوع الأشجار يقع في أماكن عالية من الجبال ووعرة حيث تكون صعبة المنال بالنسبة لقوات العدو، وفي بعض الأحيان تكون في كوخ مبني من فروع الأشجار حتى يكون أكثر استجابة لمقتضيات التنقل السريع عند الحاجة، وكثير ما توجد مغارات في الجبال خاصة الأماكن المرتفعة والعالية جدا فتستغل لكن مع مراعاة الشروط الأمنية ، بالإضافة إلى قربها من الموارد المائية الغير مقيدة في الخرائط الفرنسية حتى لا تستهدف أثناء عملية التمشيط.[12]

وحتى استغلال البيوت الطينية المتواجدة في الأماكن الجبلية الغير مكشوفة ورغم كل هذه الإحتياطات في بناء المراكز الصحية لكن للأسف فقد بدأت عدد المراكز يتقلص خاصة في فترة 1958 حتى سنة 1961 بسبب الهجوم الذي شنته القوات العسكرية الفرنسية خاصة

في العمليات العسكرية الكبرى ما عرف بمخطط شال الجهنمي الذي قام بقنبلة الجبال ما أدى الى تحطم وحرق الكثير من المراكز الصحية والذي ذهب ضحيتها ممرضين وأطباء وحتى المجروحين الموجودين بالمراكز وعلى سبيل المثال نذكر الطبيب فرس يحي سنة 1960.[13] وللإشارة فإن مسؤول المركز هو المكلف بتموين مركزه بالمواد الغذائية والأدوية وله كامل الحرية في إختيار المكان المناسب لإقامة مركزه فكان عندما يريد تغيير مركزه ينتقل بنفسه إلى المكان الثاني ليتفقده لمعرفة مدى ملائمته وهل يتوفر على الشروط المناسبة للإقامة فيه، ثم يقوم بعملية نقل المرضى والجرحى إليه[14].

وهذا الجدول عبارة عن إحصاء للمراكز الصحية بالمنطقة الثانية:[15]

اسم ومكان المركز	وضعيته	طبيعته	سعة الاستقبال	الخدمات التي يقدمها	أسماء الأطباء والممرضون الذين يشرفون عليه
بوثمودة (العمرية) الناحية الثانية القسمة الثانية	ثابت	مخبأ جبلي	31	معالجة الإصابات البسيطة والخفيفة	الطبيب زميرلي والممرض سي محمود.
داودي (دناز) وزرةالناحية الثانية القسم الثاني	ثابت	مخبأ جبلي	سري	معالجة الإصابات البسيطة والخفيفة	طبيب من جيش التحرير
أولاد ابراهيم	ثابت	مخبأ جبلي	من 15 إلى 20شخص	معالجة الإصابات البسيطة و الخفيفة	علي " المحافظ " مع الممرضين

الفورنة (العمرية) الناحية الثانية القسم الثاني	متنقل	مخبأ جبلي	غير محدود و هوسري	معالجة الإصابات البسيطة و الخفيفة	الطبيب سي جمال
تيبرقنت (وزرة) الناحية الثانية	متنقل	مخبأ جبلي	غير محدود و هوسري	معالجة الإصابات البسيطة و الخفيفة	الطبيب سي جمال
البلاشة (العمرية) قرية بني خنوس الناحية الثانية	متنقل	مخبأ جبلي	غير محدود وهوسري	معالجة الإصابات البسيطة والخفيفة	الممرض السي حميدو
أولاد ونيد (دائرة محجوب) بلدية أولاد بوعشرة الناحية الأولى	متنقل	مخبأ جبلي	غير محدود وهوسري	معالجة الإصابات البسيطة	الطبيب الولائي يحي فارس والممرضان عبدالقادرالبليدي ، مصطفى البليدي
الطوالب (سيدي نعمان)	متنقل	مخبأ جبلي	غير محدود وهوسري	معالجة الإصابات البسيطة	عددمناالمجاهدين
بهلي جنوب الشريعة ثم بالحمدانية	متنقل	مخبأ جبلي	//	//	الطبيب إسماعيل دهلوك (1956-1958) ألقي عليه في جانفي 1958 و بقي فيه إلى غاية الإستقلال.
الكرارش (أدموнددودي)	متنقل	مخبأ جبلي	//	//	الطبيب إسماعيل دهلوك.

3- عملية التزويد بالأدوية:

عرفت الولاية الرابعة في بداية إنطلاق الثورة سهولة في عملية التمون والتزويد بالأدوية وذلك عن طريق الشعب الذي يعتبر المصدر الأول وأيضا عن طريق المناضلين والمرضين والممرضات.(16) والعاملين في المستشفيات الفرنسية نذكر منهم نور فوضيل خبير جهاز راديو اللاسلكي بالمستشفى العسكري بالمدية وزوجته وإبنته بالإضافة إلى محرور محمد عامل عام في مخيم صنوبر ومخبر القطاع الثاني.(17) وحتى تعاطف بعض الأطباء الفرنسيين الذين يتمتعون بالحس الإنساني وأيضا مؤمنين بعدالة القضية الجزائرية نذكر منهم: الطبيب شولي وستوبا الممرضة الأوربية الشيوعية العاملة بمستشفى البليدة.(18) ومن الأدوية التي لازمت الطاقم الطبي في الولاية في علاج المصابين هو كالتالي :

- مضاد الكزاز vaccin anti titaniques
- المضادات الحيوية anti biotiques
- مضادات العفونة anti septiques
- مضاد الإسهال anti dhiarreiques
- مضاد للسعال anti tissufs
- مسكن الألم antalgiques
- المخدر anesthésiques
- المصل serumes
- المضاد للحمى anti pyretitiques
- مبيد الطفيليات و الديدان les parasiticides/ vermifuges
- مسهلات الهضم médicament du type digestifs
- المقويات les fortifiants

- مضاد للطفيليات anti paludeéms(19)

ولكن السلطات الاستعمارية هدفها دائما هو القضاء على الثورة والقائمين عليها ولم يسلم من جرمها حتى المجروحين فقد حرموا من أبسط حقوقهم وهي التداوي فقد سعت إلى عملية تقنين استراد وبيع و شراء الأدوية عن طريق مراسيم وقوانين نذكر منها :

مرسوم 22 ديسمبر 1956 والذي أمضاه الأمين العام للحكومة "بيار شوصاد" وهذا القانون متعلق بتنظيم ومراقبة واستراد والملكية وبيع المواد الصيدلانية والعقاقير ومستلزمات الضمادات وتم تسمية الأدوية المعنية بالأمر الحكومي :

- المضادات الحيوية.
- سيلفاميد.
- التخدير العام والمحلي.
- الكافيين.
- الكافور القابل للذوبان.
- زيت الكافور القابل للحقن .
- أدرينالين الحقن(20).
- مضادات العفونة.
- المصل المضاد للكزاز والتعفن.

كما أكد هذا المرسوم في المادة الثالثة منه على أن يكون المستفيد من الدواء مرفوقا بوصل الطلب، مدون فيه تاريخ الطلب والكمية المطلوبة ونوع الدواء المطلوب، واسم وعنوان الطالب، واسم الطبيب بينما ألزمت المادة الخامسة منه صيادلة التجزئة وباعة الجملة المودعين، وللمخازن العمومية على جرد مبيعاتهم وتقديم جرد شهري للحاكم العام بكل نوع من الأدوية التي سبق ذكرها.(21) وإذا تحدثنا عن الجمهورية الفرنسية الخامسة ومجيء ديغول إلى الجزائر يعتبر أشد الفترات عسرا بالنسبة للثورة، والولاية الرابعة حيث تم ضرب واصابة معظم هياكلها

القاعدية والبشرية من ممرضين وأطباء خاصة بما عرف بالعمليات العسكرية الكبرى أو مخطط شال الجهنمي عملية courroie التي استولت السلطات الاستعمارية فيها على خمسة مخازن للأدوية وبالتالي عوز الولاية الرابعة والمنطقة الثانية إلى الأدوية أصبح ظاهرا(22) وقد تفنن ديغول في استحداث مراسيم غاية في التطرف وذلك بما عرف بمرسوم 23 ماي 1960 والذي حدد استراد وتسيير بعض المنتوجات الصيدلانية في الجزائر المكون من سبع مواد، موقع من طرف المندوب العام للحكومة في الجزائر بول دولوفريي Paul Delouvrier ، حيث جاء في المادة الثانية منه أن استيراد المضادات الحيوية مهما كان نوعها لا يتم إلا بواسطة مؤسسات صيدلانية معتمدة من قبل هيئة الصحة العامة والمخازن العمومية المدنية في الجزائر ، و في المادة الخامسة يلح على أن بيع الأدوية لا تتم إلا عن طريق صيدلي معتمد أو صيدلية أو مؤسسات صحية للعلاج العام و الخاص أو صيادلة معروفين، يضاف إليها شروط تخص تسجيل تواريخ دخول وخروج الأدوية، كمية المبيعات، الكمية الواردة والصادرة، اسم وعنوان الممون والبائع والسلع المهملة (ناقصة أو فاسدة أو مهترئة) وأن تكون الوصفة موقعة باسم الطبيب وعنوانه مع ذكر اسم وعنوان المريض المستفيد والكمية المسجلة والمقادير الموصى بها .(23)

الطب التقليدي:

هذا ما جعل الوضع الصحي في الولاية الرابعة في حرج وفي خطورة حيث تضاعف عدد الجرحى والمرضى بالإضافة الى نقص في الأدوية الى درجة انعدامها، وكذلك تهجير السكان وحشدهم في مناطق بعيدة عن جيش التحرير الوطني، وهذا كله أدى الى التداوي بالطريقة التقليدية وبالأعشاب حيث أصبح أمرا إجباريا:

- **الحمى**: قطف أزهار الكينة في أواخر الربيع وتغلى في الماء لتشرب صباحا قبل الأكل
- الجروح: استخدام نبات الزعتر.
- الحروق: طلي الزبدة أو الطين على الجروح

- أمراض الصدر: وضع الثوم المقلي أو المشوي في العسل ثم تناوله.
- الرعاف: تناول قشور البيض بعد طحنها (24).
- الإسهال: تغلية ورق الزعرور ثم شربه.
- الكي: بقضيب لتضميد الجروح والكدمات(25).
- استخدام زيت الزيتون الساخن لإخراج الشظايا.

أما الوسائل الطبية فقد تنوعت على حسب الظروف والحاجة فالوسائل التي استخدمت بكثرة تتمثل في :

- شفرة الحلاقة – الماء المعقم
- إبر الحقن – السكاكين
- الملقط – منشار خاص بقطع الحديد
- الضمادات – خيط العمليات الجراحية
- جبس – القطن(26).

الخاتمة:

إن الصحة كانت من أولويات القادة في الولاية الرابعة وحتى الولايات الأخرى، نظرا لأهميته و لا ننسى أن المعارك التي كانت تخوضها وحدات جيش التحرير الوطني كانت تترتب عنها خسائر مادية وبشرية ، هذا ماجعل القادة بحاجة إلى تجنيد عدد أكبر من الممرضين والأطباء وإنشاء مراكز صحية أكثر للسيطرة على الوضع ولو نسبيا، كما كانت جهود القادة ترمي إلى توفير ممرضين وممرضات يجوبون القرى والمداشر لعلاج المواطنين وتوعيتهم صحيا وسياسيا

و يندرج كل هذا في إطار مبدأ إفشال الدعايات والخدمات التي كانت تقوم بها المكاتب الخاصة (لاصاص).

الهوامش:

(1) المنظمة الوطنية للمجاهدين ، **تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل وقائع و أحداث الثورة التحريرية للولاية الرابعة** ، ج1 ، التقرير السياسي الفترة من 20 أوت 1956 الى نهاية 1958، ص 43.

(2) امجمد بوحموم، **التنظيم السياسي و العسكري في الولاية الرابعة 1956–1962** ، رسالة ماجستير جامعة الجزائر ،كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية ، 2005–2006 تحت اشراف د مسعودة يحياوي ، ص 147.

(3) المنظمة الوطنية للمجاهدين، التقرير السياسي، ج1، 1956–1958، **مصدر سابق،** ص 43.

(4) نضيرة شتوان، الثورة التحريرية في الولاية الرابعة التاريخية 1954–1962 ، أطروحة دكتوراه جامعة أبي بكر بالقايد ، تلمسان ، كلية الآداب و العلوم الانسانية و الاجتماعية 2007–2008 ، تحت اشراف : أ.د يوسف مناصرية ص 336.

(5) **نفسه،** ص 336.

(6) جيلالي تيكران ، **الصحة في الولاية الرابعة التاريخية ، امكانيات و تنظيم بين 1954–1962** ، مذكرة ماجستير في تاريخ الثورة الجزائرية ، تحت اشراف د. بن يوسف تلمساني ، السنة الجامعية 2006–2007 ، ص 43.

(7) شتوان ، مرجع سابق ، ص339.

(8) إسماعيل محفوظ دهلوك : من مواليد 31 جانفي 1931 بمليانة ، انضم لصفوف جيش التحرير الوطني اثر اضراب 19 ماي 1956، كان طالبا بكلية الطب ،السنة الخامسة، وتتولى خلال الثورة التحريرية مهمة الطب بالمنطقة الثانية،ألقي عليه القبض في جانفي 1958،وبقي في السجن الى غاية الاستقلال.أنظر: عبد القادر ماجن، "النظام الصحي بالولاية الرابعة"، مجلة أول نوفمبر،العدد 103، سنة 1989 ، ص43.

(9) المنظمة الوطنية للمجاهدين، التقرير السياسي، ج1، 1959–1962، مصدر سابق، ص73

(10) بوحموم، مرجع سابق، ص 147

(11) المنظمة الوطنية للمجاهدين، التقرير السياسي، ج1، 1959–1962، مصدر سابق، ص74–75

(12) محمد تقية ، حرب التحرير في الولاية الرابعة ،تر : بشير بولفراق دار القصبة للنشر الجزائر 2012 ، ص 84.

(13) شتوان ، مرجع سابق ، ص 361

(14) نفسه ، ص 363.

(15) مديرية المجاهدين لولاية المدية ، ملف خاص بالمراكز الصحية عبر ولاية المدية إبان الثورة التحريرية الكبرى 1954–1962 ، مصلحة التراث التاريخي و الثقافي ، ص 33.

(16) لخضر بورقعة ، شاهد على إغتيال الثورة ، مذكرات الرائد سي لخضر ، تحرير صادق بخوش الجزائر ، دار الحكمة للنشر ، 1990 ، ص 336.

[17] المنظمة الوطنية للمجاهدين ، مداخلة الدكتورة أنيسة بركات في الملتقى الثاني لتاريخ الثورة بقصر الأمم ، بتاريخ 08-10 ماي 1984 ، ص 152.

[18] بورقعة ، مصدر نفسه ، ص 337.

[19] تيكران ، مرجع سابق ، ص 81

[20] نفسه ، ص 82

[21] نفسه، ص83.

[22] شتوان ، مرجع سابق ، ص 374.

[23] تيكران ، مرجع سابق ، ص 83.

[24] نفسه ، ص 84.

[25] شهادة المجاهد بوسيلة محمد ، حول التموين و التمريض في المنطقة الثانية ، سجلت الشادة بمقر المنظمة الوطنية للمجاهدين ، ولاية البليدة ، بتاريخ : 28-02-2016 على الساعة 12:00

[26] تيكران ، مرجع سابق ، ص 85.